

الفقر الإنجيلي

الأب برنار أوليفيه

نقله إلى العربيّة جورج الياس عازار

أفكار حول روح الفقر الإنجيلي

تمهيد

في عالم تسوده التقلبات وإعادة النظر والبحث عن روحانيّة، يمكن أن يأخذ التفكير حول الفقر الإنجيلي كلّ أبعاده. فمثل هذا التفكير له أفضليّة كبيرة كونه يستند إلى حداثة رسالة الإنجيل.

قد تكون المسألة الرئيسيّة في الأساس معرفة ما تعنيه كلمة فقر للإنسان المسيحيّ، وهل هي بالضرورة شرط ملازم لتقدّمه الروحيّ، كما يمكن أن تكون التساؤل حول الأسباب التي تجعل من حالة الغنى عائقًا في وجه التقدّم الروحيّ.

ربّما يظنّ بعض الناس أنّ تجرؤ إحدى "فِرَق السيّدة" على وضع نصّ عن الفقر الإنجيليّ هو نوع من الرهان أو التحديّ. خصوصًا إذا كانوا يعلمون، وهم على الأرجح يعلمون، أنّ هذه الفرقة ليست مؤلّفة في الواقع من أزواج فقراء، مثلها مثل عدد كبير من فِرَق السيّدة. فباسم ماذا وباسم من يمكن التكلّم على الفقر عندما لا يكون المتكلّم يعيش بنفسه هذه الحالة؟ قد يكونون على حقّ. ولكن، يجب الاعتراف بأنّ التحديّ الذي أطلقته هذه الفرقة موجّه إليها أولاً.

فنحن، مثل كثيرين، نتمنّى أن نحيا بحسب روح الإنجيل. ولكن، ما العمل لكي لا يبقى ذلك من قبيل التمنيّ؟ إنّ ضيق الوقت وصعوبة التطبيق والأوضاع الشخصيّة الخاصّة هي جميعًا أسباب وجيهة لكي لا يتقدّم المرء إلى أبعد من ذلك. ينبغي الاعتراف بأنّ التفكير في الأمر يؤدّي فورًا إلى طرح أسئلة جوهرية فيها من الأهميّة ما يكفي لتثبيط أفضل الهمم. من هذه الأسئلة:

- هل لا نزال قادرين على أن يكون لدينا حكم متجرّد وجريء في شأن روح الفقر الإنجيلي وما يقتضيه في حياتنا اليوميّة؟
- أيّ نظرة يجب أن تكون لنا تجاه المال والثروة؟
- ما هو التغيير في طريقة حياتنا أو التعديل الذي يجب أن نقودنا إليه أجوبتنا على هذه الأسئلة؟

تقتضي هذه التساؤلات الكثير من الرجوع إلى الذات ومن إعادة النظر، وهو أمر يحمل غالبًا قدرًا كبيرًا من التمرّقات ويستلزم الكثير من الشجاعة والتمييز.

لقد أردت فرقتنا أن تقدّم خدمة مفيدة لسائر الفرق بأن تُشركها في ثمرة تفكيرها حول هذه النداءات. ويرتكز تفكيرها على قناعتين:

- الأولى هي أنّ الواجب الأوّل لدى المسيحيّ هو أن يعطي حيثما كان، وبما ناله من مواهب، أفضل ما لديه في خدمة الله والآخرين. إنّ الحثّ على أن يتجاوز المسيحيّ ذاته ويهتم اهتمامًا ثابتًا بتثمير وزناته ووزنات الآخرين يجب أن يقود باستمرار تصرفه الفردي والجماعيّ. فكلّ إنسان هو تاريخ فريد يستحقّ الاحترام والتقدير.
- والثانية هي أنّ المسيحي لا يسعه أن يجهل حقائق العالم الذي يحيا فيه، وإلاّ وقع في الملائكيّة أو الرعونّة. فالملموس له ميزة الحثّ على التواضع. وهو يعني بالتحديد الإصغاء إلى المحيط وتمييز الأنبياء الصالحين من الطالحين والثبات في الجهد. إن قيمة الشهادة تقوم على حقيقة هذا الإدراك وهذه النظرة إلى العالم.

* * *

قسّم الموضوع إلى سبعة فصول أهمّيّتها في أنّها إذا لم تكن تغطّي كامل المسائل التي يثيرها التفكير في الفقر الإنجيلي، فهي على الأقلّ تجمع المواضيع التي بدت لنا أساسيّة للتعمّق في مظاهره الرئيسيّة. وقد صيغ الموضوع بحيث يجد فيه كلّ واحد إطارًا فعّالًا وبسيطًا للتفكير والعمل في حياته اليوميّة.

وقد عرّضت الفصول بطريقة تهدف إلى الدخول في التفكير على مراحل:

- نصّ في البدء أو بضعة نصوص للتأمّل،
- عرض إجمالي يطرح المسألة
- ثلاثة أسئلة عملية للدرس فرديًا أو في مجموعة (في الفرقة)، مع سؤال أخير بشكل اقتراح لتحديد قاعدة حياة.

فرقة السيّدة - فرقة باريس ١٨٣

المستشار الروحي: الأب برنار أوليفيه

مقدمة

الفقر شرّ، هذا ما يقوله الكتاب المقدّس. ومع ذلك، "إنّه لأسهلُ أنْ يَدْخُلَ الْجَمَلُ فِي ثَقْبِ إِبْرَةٍ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ الْعَنِيُّ مَلَكُوتَ اللَّهِ".

مدهشٌ هذا الكلام الذي يعلن الطوبى للفقراء ويندّد في الوقت عينه بعثار الفقر، الذي يشكّك بالغنى ويعترف بأنه يمكن أن يكون مكافأةً للفضيلة، الذي يدعو المسيحيين لتثمير ما نالوه من خيرات ويذكّرهم بأنهم "لا يستطيعون أن يعبدوا ربّين: الله والمال".

إنّ تاريخ علاقات الكنيسة والمسيحيين مع الفقر ليس أكثر إنارة. فماذا يجمع مثلاً بين إدانة القوانين الخاصّة بالفقراء من قبل وعَاطِظ مثل مالتوس (Malthus) في بريطانيا القرن السادس عشر وتطوّر لاهوت التحرير في أميركا اللاتينيّة في ثمانينات القرن العشرين؟ ليس الشيء الكثير، اللهمّ إلاّ الإخلاص المتساوي في الإيمان لدى الطرفين: فإنماء الثروة، في نظر البعض، هو الحل الوحيد لمشكلة الفقر، ولكنّه، في نظر البعض الآخر، طريق مسدود بسبب ما يستتبعه من عدم مساواة لا يُحتمَل.

إنّ استعمال الكلمة نفسها في النصوص المقدّسة للكلام، وفقاً للحال، على شيئين مختلفين تماماً: الفقر الواقعيّ أو الفقر الماديّ من جهة، والفقر القلبيّ أو الفقر الروحيّ من جهة أخرى، لا يُسهّم في توضيح النقاش. فما ينطبق على معنى الفقر الإنجيليّ هو بالأحرى كلمات مثل: التجرد والتواضع وبذل الذات.

وعليه، أيّ معنى يمكن أن يكون في عالمنا اليوم للتفكير في هذا الفقر الإنجيليّ؟ قد نجد في ضخامة التحدّيات المختلفة التي يواجهها مثل هذا التفكير وقوّة الرسائل المنبثقة منه ما قد يشكّل الجواب على هذا التساؤل.

يبدو العالم، في نهاية الألف الثاني، مطبوعاً بثلاث ظاهرات متزامنة ومترابطة بشكل وثيق ومعقّد: عولمة التبادلات، ثورة في تقنيّات الاتصال، سيادة الليبراليّة الاقتصاديّة. إنّ التحوّلات الاستثنائيّة التي تنجم عن هذه الظاهرات وقدرة التكيّف التي تفترضها هي من الحجم بحيث أنّ العالم الذي عرفناه يتمزّق أمام أعيننا دون أن يتمكّن أحد من الادّعاء بالسيطرة على تطوّره أو برسم ملامح ما سيكون عليه غداً. فحماسة المتحمّسين يقابلها قلقُ المتشكّكين الذين يرون ما في عالمنا من هشاشة ومعطوبيّة. وهكذا فإنّ ما تتغنّى به القيم الغربيّة من انتصار مزعوم للحداثة وتقدير زائد للتطوّر يصطدم بمقاومة كبيرة بسبب إخفاقاته المتكرّرة وباسم الهويّات الثقافيّة والدينيّة المحليّة التي تفرض نفسها اليوم أكثر من أيّ يوم مضى.

وفي حين يلاحظ بعض الناس أننا نسينا أن نضع الإنسان في قلب التقدّم الاقتصاديّ، وأنّ عدم المساواة والجوع والعنف والحروب القبليّة تبقى النصيب المشترك للجزء الأكبر من البشريّة، فإنّ أشخاصاً عديدين، في أوساط الشبيبة خاصّة، يتطلّعون إلى عالم أكثر معنى وإلى تقدّم أكثر إنسانيّة.

وفي حين يشهد تاريخنا تعقيداً متزايداً، فإنّ البحث عن وحدة الحياة يصبح تطلّباً قوياً وفي الوقت عينه أمراً نادراً. فالتفكير حول الفقر، بما يطرحه من أسئلة ويواجهه من خيارات، يمكن أن يغدو عوناً ثميناً. ذلك لأنّ أفقّه، في الحقيقة، واسع جداً يشمل مسائل حياتيّة وخيارات من المجتمع، كما يشمل معطيات اقتصادية وأموراً روحانيّة تمسّ في الصميم حياة كلّ واحد منّا بوصفه فرداً حرّاً مسؤولاً في الجماعة البشريّة وعضواً كامل العضويّة فيها. هذه الجماعة لها الحقّ في أن تنتظر من كلّ إنسان المشاركة، حيثما هو، في إغناء العالم وفي عمل الخلق الذي يدعو إليه الخالق. وعليها هي، في المقابل، أن تقدّم له إمكانيّة إتمام ذلك.

إنّ ترتيب الفصول في هذا الكتاب يلبي الرغبة في تسهيل درس هذا الموضوع من قبل الفرق وذلك بفضل مسيرة تدريجيّة يتعيّن أن تتطرّق بما فيها من مراحل إلى المسائل التالية:

ماذا يقول الكتاب المقدّس؟ (الفصل الأول)

إنّ تأمل المسيحيّ في الفقر يفترض حكماً معرفته للنصوص المرجعيّة في العهدين القديم والجديد. ففيهما كلام كثير على الموضوع وهما يعرضانه بطريقة تتطوّر عبر الزمن، وتندرج من الفقر - العقاب، إلى الفقر - البركة، ممّا يُظهر الفقر بوجهيه.

كما أنّ تمثيل الفقر عبر الأجيال من خلال أعمال الفنّانين يُظهر أنّ الفنّانين أنفسهم، من خلال معنى الفقر، ليسوا غائبين عن هذا السعي.

من هم الفقراء الموجودون بيننا وأين هم؟ (الفصل الثاني)

يجب على المسيحيّ، في خطى المسيح، أن يفتح عينيه على ما حوله لكي ينظر إلى العالم. "الفقير هو الذي لا يملك شيئاً". هذا التعريف البسيط ظاهريّاً، يبدو فوراً غير كافٍ. يبقى أن نعرف إلى ماذا يمكن أن نكون فقراء وعلى أيّ فقر نتكلّم. فالفقراء ليسوا في الواقع دائماً حيث نظنّ أو من نظنّ.

واجب المسيحيّ مواجهة الفقر برّدّة فعلٍ جديّة يتساءل من خلالها كيف يتصرّف وماذا يعمل لكي تتغيّر الأمور تغييراً حقيقيّاً.

كيف نفهم وَجْهَي الفقر، أي الفقر المادي والفقر الروحي؟ (الفصل الثالث)

الفقر الواقعي والفقر القلبي يتلاقيان دون أن يتقاطعا فعلاً. فمعناهما العميق وطبيعة روابطهما ومستلزماتها ليست أقل من أسئلة تستدعي من قبلنا موقفاً عملياً في حياتنا اليومية. "تعالِ اتبغني"، هذا ما قاله يسوع للشاب الغني. هذه الدعوة الموجّهة إلى كلّ واحدٍ منّا تختصر في ذاتها المسألة الإشكالية التي يطرحها وجهاً للفقر، والخيار الذي على كلٍّ منّا مواجهته.

ما معنى روح الفقر الإنجيلي؟ (الفصل الرابع)

يستعيد هذا الفصل في العمق مفهوم الفقر في نظر المسيحي والاستعدادات الروحية التي يجب أن تتوفر لديه والتصرفات الحياتية التي تقوده إليها. هذا الفقر الإنجيلي يتجاوز موضوع المال الذي ليس إلّا وجهاً من وجوهه، إنّه فقر الودعاء ومتواضعي القلوب الذين يتحدّث عنهم يسوع. وروح الفقر الإنجيلي، الذي يُعرّف عادة، للسهولة، بما هو عكسه (تجارب الروح التي تواجهنا والتي علينا صدّها) يثير لدينا دعوةً يوميةً إلى تجديد قاعدة الحياة.

هل يتلاءم حقّ الملكية مع الفقر الإنجيلي؟ (الفصل الخامس)

"الله هو سيّد كلّ شيء". هذا المعطى الأساسي من معطيات الإيمان المسيحي واضح وضوحاً تاماً. ففي ضوء ذلك، ماذا يمكن أن يعنيه الحقّ في التملك ولماذا الاعتراف للإنسان بهذا الحقّ؟ ثم هل هو حقّ بلا حدود؟ وهل يستتبع واجباتٍ معينة؟

الكتاب المقدّس يلقي الضوء على هذه الأسئلة إذ يجعل من الإنسان وكلياً مكلفاً بإدارة الثروات المؤتمن عليها. ما هي الأمثلة التي نستخلصها من ذلك؟

هل يمكن أن يتلاءم روح الفقر مع مفهوم الفائض عن الحاجة؟ (الفصل السادس)

"الفائض، هذا الشيء الضروري جداً". قد لا تكون هذه المزحة التي أطلقها "فولتير" من الغرابة بقدر ما تبدو عليه... لأنّها، أولاً، تشدّد على صعوبة رسم حدّ بين المفهومين. ثمّ لأنّ الجواب يختلف بحسب الأشخاص. فالضروريّ والفائض لدى كلّ شخص أمران مختلفان. وليس من السهل، بالتالي، على الإنسان أن ينظر بوضوح ودقّة إلى طريقة حياته وعاداته، وأن يجتهد في

التمييز بين ما هو ضروري وما هو أقل ضرورة وما ليس ضروريًا على الإطلاق، خصوصًا إذا كان ذلك سيؤدي إلى إعادة النظر في أمور كثيرة.

هل نحن أسرى الظروف المادية لدرجة تمنعنا من المحاولة؟ وهل نملك الشجاعة لاستخلاص النتائج؟

أي رابط بين روح الفقر الإنجيلي وتطور العالم؟ (الفصل السابع)

قيل الكثير في ما سبق حول روح الفقر الإنجيلي وما يستلزمه من متطلبات:

- واجب العدالة والمحبة
- الدعوة إلى تدمير الوزنات
- التمييز في استعمال خيرات العالم.

إنما يبقى، في ختام هذا البحث، سؤال مركزي: كيف نستفيد من هذه الرسالة؟ وبماذا يمكنها أن تشكل مفتاحًا مميزًا للدخول إلى فهم العالم وتغييره؟

الفصل الأول

الفقر في الكتاب المقدس

صلاة: تعظم نفسي الرب!

أولاً: العهد القديم

- أ) - الفقر كواقع اجتماعي.
- ب) - الفقير إنسان خاطئ.
- ج) - "خير الأمور الوسط" أو "لا عوز ولا رخاء".
- د) - ما هي روح "مساكين الله"؟

ثانياً: مسيح الفقراء والمساكين

- أ) - أناشيد الخادم عند أشعيا.
- ب) - المزمور ٢٢.
- ج) - نشيد مريم.

ثالثاً: الفقر بحسب الإنجيل

أ) - الفقر الواقعي

١. "الفقراء معكم في كل حين" (متى ٢٦، ١١).
٢. يسوع لا يدين الفقر كفقر...
٣. ... مع أن الفقر يمكن أن يشكّل خطرًا.

ب) - الفقر كمثل أعلى إنجيلي

صورة الفقر تطوّرت عبر الزمن. فالفقر المرذول في العهد القديم خَلَفَهُ الفقر كمثل أعلى إنجيلي في العهد الجديد.

شيء واحد واضح: الفقر المفروض مرفوض. وحده الفقر الاختياري يمكن أن يساعد الإنسان على أن يجد طريق الخلاص.

أولاً: العهد القديم^١

للفقر في العهد القديم مكان كبير. فهو ظاهرة اجتماعية شكّلت صدمة لفكر الشعب الإسرائيلي. نجد لدى هذا الشعب ثلاثة تيارات فكرية، مختلفة، وأحياناً متناقضة.

آ - الفقر كواقع اجتماعي

في نظر أهل التيار الأول، "الفقر هو حالة تشكّل حجر عثرة، ويجب أن لا يكون لها وجود في إسرائيل". إنّ المثل الأعلى الأولي لشعب الله، كما أسسه موسى، هو جماعة يكون فيها كلّ شيء في خدمة الجميع، في مساواة أخوية كاملة. ولقد كان المبدأ المعلن الثابت: "لن يكون بينكم فقير". لكنّ الأمور لم تكن بهذه السهولة في الممارسة العملية. فعندما استقرّ الشعب في أرض كنعان، وكان لا يزال حتى ذلك الوقت في حالة قريبة من البداوة، جرى اقتسام الأرض... فظهرت في الحال أوضاع اللامساواة. يقول المثل: "من له الأرض له الحرب". وسرعان ما تطوّر الأمر إلى حالات فاضحة: أقوياء مقتدرون يملكون كلّ شيء تقريباً ويستغلّون الآخرين في جهة، وفي جهة أخرى جماعة المستغلّين الذين لا يملكون شيئاً.

وهذا ما جعل الأنبياء يرفعون الصوت عالياً ضدّ ما كانت تمارسه الطبقات المالكة من ظلم واستبداد، ويفضحون ما كان يتعرّض له الفقراء من قهر واستغلال بكافة الأشكال. وهذه بعض النصوص على سبيل المثال:

▪ الغش في التجارة:

"إنّ أفرايم مثل التاجر الكنعانيّ يَحْمِلُ بِيَدِهِ مِيزَاناً مَغْشُوشاً لِأَنَّهُ يُحِبُّ الْجُورَ. وَيَقُولُ: «قَدْ أَصْبَحْتُ غَنِيّاً، وَصَمَنْتُ لِنَفْسِي ثَرَوَةً، وَلَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ إِنْ يَجِدَ فِي كُلِّ مَا اكْتَسَبْتُهُ مِنْ غَنَى مَا لَمْ حَرَاماً أَثِيماً»" (هوشع ١٢، ٨-٩)

"اسْتَمِعُوا هَذَا أَيُّهَا الدَّائِسُونَ عَلَى الْبَائِسِينَ، يَا مَنْ حَاوَلْتُمْ أَنْ تَقْضُوا عَلَى فُقَرَاءِ الْأَرْضِ، قَائِلِينَ: «مَتَى يَنْقُضِي أَوَّلَ الشَّهْرِ حَتَّى نَبِيعَ الْحِنْطَةَ؟ مَتَى يَمْضِي السَّبْتُ لِنَعْرِضِ الْقَمْحَ فِي السُّوقِ، فَتَعْمَدَ إِلَى تَصْغِيرِ حَجْمِ مِكْيَالِ الْإِيْفَةِ وَتَرْفَعِ الْأَسْعَارَ، وَتَسْتَعْمَلَ مِيزَاناً مَغْشُوشاً. لِنَشْتَرِيَ الْمَسْكِينِ بِقِطْعَةٍ مِنَ الْفِصَّةِ، وَالْبَائِسَ بِنَعْلَيْنِ، وَنَبِيعَ نُقَايَةَ الْقَمْحِ؟»" (عاموس ٨، ٤-٦)

▪ الاستيلاء على الأراضي:

"وَيْلٌ لِلْمُتَمَارِمِينَ بِالسُّوءِ، الَّذِينَ يَحُوكُونَ الشَّرَّ وَهُمْ فِي مَصَاجِعِهِمْ، الَّذِينَ يُنْفِدُونَ عِنْدَ طُلُوعِ الصَّبَاحِ مَا خَطَطُوا لَهُ، لِأَنَّ ذَلِكَ فِي مُتَنَاولٍ قُدْرَتِهِمْ. يَشْتَهُونَ حُقُولاً وَيَغْتَصِبُونَهَا، وَيُبُوتاً فَيَسْتَوْلُونَ عَلَيْهَا. يَجُورُونَ عَلَى الرَّجُلِ وَعَلَى بَيْتِهِ وَالْإِنْسَانَ وَمِيرَاتِهِ." (مicha ٢، ١-٢)

^١ - يستوحى هذا الفصل كتاب أ. جيلان (A. Gelin) بعنوان "الفقراء الذين يحبهم الله" « Les pauvres que Dieu aime »

• العدالة تباع وتشري:

"إِنَّكُمْ تُحَوِّلُونَ الْعَدْلَ مَرَارَةً، وَتَطْرَحُونَ الْحَقَّ إِلَى الْأَرْضِ. [...] قَدْ أَبْعَضُوا مَنْ يُدِدُّ بِالْجَوْرِ فِي سَاحَةِ الْقَضَاءِ، وَيَكْرَهُونَ مَنْ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ. فَلَأَنْتُمْ تَطَّوْنُ الْمَسْكِينِ وَتَبْتَرُونَ مِنْهُ رِشْوَةً قَمَحٍ حَتَّى تُشَيِّدُوا بُيُوتًا مِنْ حِجَارَةٍ مَنْحُوتَةٍ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَسْكُنُوا فِيهَا، وَتَعْرِسُوا كُرُومًا شَهِيَّةً وَلَكِنَّكُمْ لَنْ تَشْرَبُوا مِنْ خَمْرِهَا. لِأَنَّيَ عَالِمٌ بِكَثْرَةِ مَعَاصِيكُمْ وَعِظَمِ خَطَايَاكُمْ، إِذْ أَنْتُمْ تُضَايِقُونَ الْبَارَّ أَيُّهَا الْمُرْتَشُونَ الَّذِينَ تَصُدُّونَ الْمَسْكِينِ عَنِ حَقِّهِ فِي سَاحَةِ الْقَضَاءِ." (عاموس ٥، ٧-١٢)

أما الوصف المؤثر لحالة الفقراء الذين يلجأون إلى عدالة الله فنجده في سفر أيوب:

"... يَنْفُلُونَ التُّخُومَ، وَيَعْتَصِبُونَ الْقُطْعَانَ وَيَرْعَوْنَهَا. يَأْخُذُونَ حِمَارَ الْإِيْتَامِ وَيَزْتَهِنُونَ ثَوْرَ الْأَرْمَلَةِ. يَصُدُّونَ الْمَسَاكِينَ عَنِ الطَّرِيقِ، فَيَحْتَبِيءُ فُقَرَاءُ الْأَرْضِ جَمِيعًا ... يَجْمَعُونَ عِلْفَهُمْ مِنَ الْحَقْلِ وَيَقْطُفُونَ كَرْمَ الشَّرِيرِ ... يَطُوفُونَ عُرَاءَ بِلَا كِسَاءٍ، جِيَاعًا حَامِلِينَ الْحَزْمَ. يَعْصِرُونَ الرِّيتَ بَيْنَ أَثْلَامِ زَيْتُونِ الْأَشْرَارِ، وَيُدُوسُونَ مَعَاصِرَ الْحَمْرِ وَهُمْ عِطَاشٌ. يَرْتَقِعُ مِنَ الْمُدُنِ أَنْبِيُ الْمُشْرِفِينَ عَلَى الْمَوْتِ، وَتَسْتَعِيثُ نَفُوسُ الْجَرَحَى، وَاللَّهُ لَا يَصْغِي إِلَى دُعَائِهِمْ."

(أيوب ٢٤، ٢-١٢)

إنَّ شقاء الفقراء والمساكين يصرخ إلى السماء طالبًا الانتقام. وفي هذا يقول المزمور: "الْمَسْكِينُ اسْتَعَاثَ، فَسَمِعَهُ الرَّبُّ وَأَنْقَذَهُ مِنْ جَمِيعِ ضَيْقَاتِهِ." وهكذا يمكن التوصل إلى أن ننسى بسهولة الفقراء والخطاة وأن نمائل نوعًا ما المسكين بالبار.

(ب) - ممانلة المسكين بالبار

التيار الفكري الثاني ظهر في أوساط الحكماء خاصة، وهو يرى في الفقير رجلاً خاطئًا. أساس هذا التيار فكرة مكافأة الصديق مكافأة زمنية: فالغنى هو جزاء الفضيلة وبالتالي تكون حالة الفقر علامة الخطيئة. أجمل مثل على ذلك هو بلا شك شخصية أيوب العالق في محاولة تبرير مستحيلة! وبالفعل:

"طُوبَى لِمَنْ يَخْشَى الرَّبَّ وَيَبْتَهِجُ جِدًّا بِوَصَايَاهُ. ذُرِّيَّتُهُ تَكُونُ قَوِيَّةً فِي الْأَرْضِ، جِيلُ الْمُسْتَقِيمِينَ يَكُونُ مُبَارَكًا. يَمْتَلِيءُ بَيْتُهُ مَالًا وَغَنَى." (مزمور ١١٢، ١-٣).

ذلك لأنَّ الصِّدِّيقَ يُكَافَأُ دَائِمًا، وَكُلَّ مَا يَفْعَلُهُ يَنْجَحُ. أَمَّا الْفُقَرَاءُ وَالتَّعْسَاءُ، فِي الْمَقَابِلِ، فَفَدَّ يَصِحَّ الْقَوْلُ بِشَيْءٍ مِنَ الْقِسْوَةِ: الذَّنْبُ ذَنْبُهُمْ! فَسَفَرُ الْأَمْثَالِ مَزْرُوعٌ بِأَحْكَامٍ مِنْ هَذَا النُّوعِ:

"الْعَامِلُ بِيَدٍ مُسْتَرْخِيَةٍ يَفْتَقِرُ، أَمَّا الْيَدُ الْكَادِحَةُ فَتُعْنِي." (أمثال ١٠، ٤)

" لَا تُؤَلِّغْ بِالنُّؤْمِ لِنَلَا تُفْتَعِرَ ، اسْتَيْعِظْ وَاعْمَلْ فَتَشْبَعْ حُبْرًا. " (أمثال ٢٠، ١٣)

" السِّكِّيرَ وَالشَّرَّهَ يُفْتَعِرَانِ ، وَكَثْرَةُ النَّوْمِ تَكْسُو الْمَرْءَ بِالْخِرْقِ. " (أمثال ٢٣، ٢١)

الأمثال القديمة التي كانت تُعَلَّقُ في الماضي على جدران المدرسة الابتدائية ليست بعيدة عن هذه الحكمة! إنها حكمة قصيرة النظر على صورة نوع من حكايات "لافونتين" يمكن عنونتها بـ"الكسول والنملة"، وهي واردة في سفر الأمثال ٦، ٦-١١:

"أَذْهَبَ إِلَى الثَّمَلَةِ أَيُّهَا الْكُسُولُ، تَمَعَّنَ فِي طُرُقِهَا وَكُنَّ حَكِيمًا، فَمَعَ أَنَّهَا مِنْ غَيْرِ قَائِدٍ أَوْ مُدَبِّرٍ أَوْ حَاكِمٍ، إِلَّا أَنَّهَا تَخْزِنُ طَعَامَهَا فِي الصَّيْفِ، وَتَجْمَعُ مَوْوَنَتَهَا فِي مَوْسِمِ الْحَصَادِ. فَإِلَى مَتَى تَنْظُلُ رَاقِدًا أَيُّهَا الْكُسُولُ؟ مَتَى تَهْبُ مِنْ نَوْمِكَ؟ فَإِنَّ بَعْضَ النَّوْمِ، ثُمَّ بَعْضَ الرَّقَادِ، وَطَيَّ الْيَدَيْنِ لِلْهُجُوعِ، تَجْعَلُ الْفَقْرَ يُقْبَلُ عَلَيْكَ كَقَاطِعِ طَرِيقٍ، وَالْفَاقَةَ كَرَجُلٍ مُسَلِّحٍ. " (أمثال ٦، ٦-١١)

يطرح سفر أيوب الموضوع بطريقة مأسوية. فأيوب ضُرب من قبل الله الذي أراد أن يجربه. فهو إذاً، بحسب أصدقائه والرأي الشائع الذي يمثلونه، رجل خاطئ. ولكن أيوب يصر على تأكيد براءته. فهناك إذا سر - سر البار الممتحن - وهو سر لن يتوضح تمامًا في نهاية السفر، لأننا نصطدم في الواقع بسر الله نفسه. فيعترف أيوب بذلك:

" قَدْ أَدْرَكْتُ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْكَ أَمْرٌ. تَسْأَلْنِي: مَنْ ذَا الَّذِي يُخْفِي الْمَشُورَةَ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ؟ حَقًّا قَدْ نَطَقْتُ بِأُمُورٍ لَمْ أَفْهَمْهَا، بِعَجَائِبَ تَفُوقُ إِدْرَاكِي. " (أيوب ٤٢، ٢-٣)

(ج) - "خير الأمور الوسط" أو لا عوز ولا رخاء

التيار الفكري الثالث تطوّر في الأوساط الحكيمية: المثل الأعلى هو "لا للرخاء الزائد ولا للعوز المفرط".

"أَبْعُدْ عَنِّي الْبَاطِلَ وَكَلَامَ الرُّورِ، وَلَا تَجْعَلِ الْفَقْرَ أَوْ الْغِنَى مِنْ نَصِيبي. لَكِنْ أَعْطِنِي كَفَافِي مِنَ الطَّعَامِ، لِنَلَا أَشْبَعُ فَأَجْحَدَكَ قَائِلًا: مَنْ هُوَ الرَّبُّ؟ أَوْ أَفْتَقِرَ فَأَسْرِقُ وَأُلْطِخَ اسْمَ إِلَهِي بِالْعَارِ. " (أمثال ٣٠، ٨-٩)

وقد ظهر فيما بعد تطوّر هام: الفقر، وهو حقيقة اجتماعية، أصبح قيمة دينية لها مدلول روحي. يرتكز تاريخ شعب الله على العهد بين الله وشعبه المختار. هذا الشعب لم يكن أمينًا على العهد، لذلك عاقبه الله. وقد كان أشدّ عقاب زوال الملكيتين والجلاء إلى بابل.

إلا أن الله يبقى أمينًا. فمن خلال هذه المحن، يعلن الله بواسطة أنبيائه عهدًا جديدًا أبدئًا يهيئ الطريق لمجيء المسيح والملكوت. وستكون نواة هذا الملكوت "بقية صغيرة"، شعب المساكين، "الأنانيم".

يبدو أن النبي صفنيا (حوالي ٦٤٠-٦٣٠) هو الذي ماثل، وللمرة الأولى، شعب المستقبل بشعب "المساكين". وقد ساعد الاختبار المأسوي الذي مرّ به الشعب على فهم ضرورة أن يصبح المرء "مسكيناً" أمام الله.

" التَّمِسُوا الرَّبَّ يَا وُدَعَاءَ الْأَرْضِ الرَّاضِحِينَ لِحُكْمِهِ. اظْلُبُوا الْبِرَّ وَالتَّوَّاضَعْ لِعَلَّكُمْ تَجِدُونَ مَلَاذًا فِي يَوْمِ سَخَطِ الرَّبِّ. " (صفنيا ٢، ٣)

لنتذكّر أنّ إحدى علامات الأزمنة المسيحانية هي تبشير المساكين:

" رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ، مَسَخَيْ لِأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ. " (لوقا ٤، ١٨)

"أَذْهَبًا وَأَخْبِرًا يُوْحَنَّا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ وَسَمِعْتُمْ: أَنَّ الْعُمَيَانَ يُبْصِرُونَ... ، وَالْمَسَاكِينَ يُبَشِّرُونَ." (لوقا ٢٢، ٧)

د- ما هو روح "الأناويم"

من بين الكلمات المستعملة للدلالة على هذه الفئة من الشعب، مع الفوارق التفصيلية الخاصة بكلّ منها (المتسولين، النحيلين، الضعفاء)، استقرّ العهد القديم على كلمة "أناويم" (المنحنين، الذليلين، الرازحين) فأصبحت كلمة كلاسيكية. وقد ارتدت مع الوقت طابعاً دينياً: الودعاء والمتواضعين أمام الله. إنهم إذاً البؤساء الذين لا يخلو منهم مجتمع، أي الأشخاص الذين حطّ بهم الدهر فكأنّ بينهم وبين الشقاء حلماً دائماً: فقر، مرض، نكد، تخلي الأصدقاء... وهم، بالطبع، غير راضين عن حالتهم ويتوقون إلى الخلاص والسلام والفرح. فيصرخون إلى الربّ، وهو لا يسمعهم دائماً. ولكنهم، مع ذلك، يبقون على الإيمان ويصمتون أمام سرّ الله. وبالرغم من صمته هو، نراهم ثابتين على الثقة به مثلما فعل أيّوب في النهاية.

إنهم تماماً عكس المتكبر الذي يُحبّ أن يرتفع، صاحب القلب القاسي، الذي يحقر الآخرين. ليس لهم بين البشر من يتكلون عليه، وهم لا يتذكرون أمام الله. اليوم أيضاً نجدهم في مجتمعاتنا: أشخاصاً لا يملكون شيئاً، لا يستطيعون شيئاً، عاجزون عن تحصيل حقوقهم، يتوقون إلى التحرّر ولا ملجأ لهم إلا الله. هؤلاء المساكين والفقراء هم الذي أوحوا في أميركا اللاتينية بلاهوت التحرّر.

ثانياً: مسيح الفقراء والمساكين

يمكن التركيز على ثلاثة نصوص:

آ - أناشيد الخادم المتألم في أشعيا

وخصوصًا النشيد الرابع (أشعيا ٥٢، ١٣-٥٣).

يوصف الخادم في هذا النشيد بالفقير المسكين، بالرجل الذليل المهان الراح تحت ثقل الألم والشر من كل نوع، ولكن برارته تأتي من ثقته بالله. إنه صورة مسيح "الأناويم".

ب) - المزمور ٢٢

إنه المزمور الذي يبدأ بصرخة ألم: "إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟"، تلك الصرخة التي أطلقها يسوع على الصليب، مماثلاً نفسه برجل الآلام الذي يصفه المزمور. وقد أراد إنجيل متى بوجه خاص أن يُبرز من بين تفاصيل آلام المسيح ما هو وارد في المزمور المذكور، كمشاهد الشتم والبصاق واقتسام الثياب ...

ج) - نشيد مريم

تُمثّل مريمُ شعبَ "الأناويم". إنها لا تكنفي بأن تستشهد وتتبنّى ما تتذكره من العهد القديم وخصوصًا نشيد حنة أم صموئيل، إنما لها حقًا روح المساكين. وهي تضع نفسها في مصاف الأناويم، وتستقبل، في هذا الروح، مسيح الفقراء.

يجب تلاوة نشيد مريم، الذي اتخذته حركة "فرق السيّدة" صلاةً لها، من هذا المنظار، وإعادة تلاوته مع التشديد على كل ما من شأنه إبراز روح الفقر.

ثالثًا: الفقر بحسب الإنجيل

يضع يسوع نفسه في خط العهد القديم والأنبياء والحكماء. وهو جاء ليكمل تطوّر مسيرتهم. وقد أضاف يسوع إلى اعتبارات الفقر الواقعي الظاهر للعيان بُعدًا إنجيليًا جديدًا هو فقر القلب.

آ) - الفقر الواقعي

هو الفقر المفروض. ويجب محاربته بوصفه شرًا. كثيرًا ما يتردّد هذا الموضوع في الإنجيل. ونجده تحت شكل ثلاث أفكار رئيسية:

١. "الفقراء معكم في كل حين" (متى ٢٦، ١١)

هذه الملاحظة هي أمر واقع، ولكنها ليست أمرًا محتومًا. فنحن مدعوون لأن نجد لها علاجًا. لم يتوان شعب العهد القديم عن السعي إلى إيجاد الحلّ فاستنبت مؤسستين فذتين: السّنة السابعة (السبتية)، كل سبع سنوات، والسّنة اليوبيلية، كل خمسين سنة. وكان يجب أن يسمح ذلك، إلى جانب تدابير أخرى، بمحاربة التجاوزات والانحرافات في حياة المجتمع. يشتمل هذا الموجب على

ثلاثة التزامات، من الضروري معرفتها لإدراك معناها العميق (تثنية الاشتراع، الفصل ١٥، والأخبار الفصل ٢٥):

- **راحة الأرض:** يجب إراحة الأرض والامتناع عن زرعها خلال السنة السابعة والسنة اليوبيلية. وذلك لتجنب إنهاكها وإفساد طبيعتها ورسالتها بأن تكون في خدمة البشر.
- **ترك الديون:** جميع الذين، بسبب فقرهم أو حاجتهم، قد استدانوا وارتبطوا برهن أو تأمين، أو التزموا بوضع أنفسهم في أيدي الدائنين أو المرابين، من حقهم في السنة السببية والسنة اليوبيلية أن يُعفوا من دينهم وأن يستعيدوا أنفاسهم وحرّيتهم وحياتهم الطبيعية.
- **العق العام:** "وَتُقَدِّسُونَ السَّنَةَ الْخَمْسِينَ وَتُعْلِنُونَ فِيهَا الْعِتْقَ لِجَمِيعِ سَكَّانِهَا، فَتَكُونُ لَكُمْ يُوبِيلًا، وَتَرْجِعُونَ كُلَّ وَاحِدٍ إِلَى مَلِكِهِ وَعَشِيرَتِهِ." (أخبار ٢٥، ١٠). فالأراضي والبيوت وسائر الممتلكات التي قد تكون نُزِعَتْ من أيدي مالكيها تُعاد إلى مالكيها الأصليين. والذين اضطروا لأن يُستعبدوا إيفاءً لديونهم يمكنهم بل يجب أن يستعيدوا حرّيتهم ويعودوا إلى ديارهم.

وبالرغم من ذلك، لم يختفِ الفقراء من بين الشعب اليهودي. فيجب إذاً مساعدتهم والإحسان إليهم لأن الظلم بحقهم هو إهانة لله. وقد مضى يسوع إلى أبعد من ذلك: الفقير هو سرّ حضوره الشخصي. "كُلُّ مَا فَعَلْتُمُوهُ لِأَخِي إِخْوَتِي هَؤُلَاءِ الصِّغَارِ فَلِي قَدْ فَعَلْتُمُوهُ" "كُنْتُ جَائِعًا فَأَطْعَمْتُمُونِي..." (راجع نص الدينونة العظمى في متى ٢٥، ٣١).

٢. يسوع لا يدين الفقر كفقر...

لا يقول يسوع إنّ الغنى في حدّ ذاته أمر سيئ. فقد كان له أصدقاء ميسورون، كالتسوة اللواتي كنّ يتبعنه ويخدمنه ويساعدنه بأموالهنّ، أو لعازر الذي سكبت أخته مريم على قدمي يسوع طيباً بثلاثمائة درهم... (يوحنا ١٢، ٥). كما كان يسوع نفسه يعرف كيف يستعمل خيرات الأرض: في عرس قانا (يوحنا ٢، ١-١١)، على مائدة العشارين (متى ٩، ١٠-١٣). حتى إنّ بعض الناس قد أخذوا عليه مسلكه هذا في مقابل يوحنا المعمدان التقشفي (متى ١١، ١٨-١٩).
إلاّ أنّه، وإن لم يدين الغنى، فهو يدعونا إلى أكبر قدر من التمييز. ولحادثة الشابّ الغني، في هذا الشأن، دلالة كبرى:

"وَإِذَا شَابَّ يَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ وَيَسْأَلُ: «أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَيِّ صِلَاحٍ أَعْمَلُ لِأَخْضَلِ عَلَى الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ؟» فَأَجَابَهُ: «لِمَاذَا تَسْأَلُنِي عَنِ الصَّالِحِ؟ وَاحِدٌ هُوَ الصَّالِحُ. وَلَكِنْ، إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ، فَاعْمَلْ بِالْوَصَايَا». فَسَأَلَ: «أَيَّةَ وَصَايَا؟» أَجَابَهُ يَسُوعُ: «لَا تَقْتُلْ؛ لَا تَزْنِ؛ لَا تَسْرِقْ؛ لَا

تَشْهَدُ بِالزُّورِ؛ أَكْرِمِ أَبَاكَ وَأُمَّكَ؛ وَأَحِبِّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ...» قَالَ لَهُ الشَّابُّ: «هَذِهِ كُلُّهَا عَمِلْتُ بِهَا مُنْذُ صِغَرِي، فَمَاذَا يَنْفُضُنِي بَعْدُ؟» فَأَجَابَهُ يَسُوعُ: «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلًا، فَادْهَبْ وَبِعْ كُلَّ مَا تَمْلِكُ، وَوَزِعْهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاوَاتِ. وَتَعَالَ اتَّبِعْنِي!» فَلَمَّا سَمِعَ الشَّابُّ هَذَا الْكَلَامَ، مَضَى حَزِينًا لِأَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ ثَرْوَةٍ كَبِيرَةٍ. فَقَالَ يَسُوعُ لِتَلَامِيذِهِ: «الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ عَلَى الْغَنِيِّ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ.» (متى ١٩، ١٦-٢٣)

٣. ... مع أن الفقر يمكن أن يشكّل خطرًا

«الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ عَلَى الْغَنِيِّ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. وَأَيْضًا أَقُولُ: إِنَّهُ لِأَسْهَلُ أَنْ يَدْخُلَ الْجَمَلُ فِي ثَقْبِ إِبْرَةٍ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ الْغَنِيُّ مَلَكُوتَ اللَّهِ.» (متى ١٩، ٢٣-٢٤)

الصورة فجّة وقد حاول الكثيرون إعطاءها تفسيرات مُطَفَّة. ويبدو أن الكلمتين اليونانيتين اللتين تعبّران عن الجمل والحبل متشابهتان كثيرًا، ممّا يجعل إمكانية الالتباس بين الواحدة والأخرى أمرًا بالغ الاحتمال. فبديهياً أنّ صورة دخول الحبل في ثقب الإبرة أقرب للعقل من دخول الجمل، ولكن، يجب الاعتراف بأنّ صورة دخول الجمل أكثر إثارة وجاذبيّة.

يبدو الغنى في العهد القديم كأمرٍ خطيرٍ لأنّه ينتج الكبرياء ويوصل القلب عن الله. فلا يمكن أن يكون غاية عظمى.

أمّا في العهد الجديد، فملكوت الله هو القيمة المطلقة التي لها الأولوية على كلّ ما عداها (مثل الكنز المدفون في حقل، واللؤلؤة الثمينة). ويمكن الخطر في أن يتعلّق القلب بالثروة.

يجعل إنجيل متى من ذلك لازمةً. وهكذا نجد يوحنا المعمدان يردّد على الذين يسألونه: " ماذا نفعل؟" بقوله:

- "مَنْ كَانَ عِنْدَهُ ثَوْبَانِ، فَلْيُعْطِ مَنْ لَا ثَوْبَ عِنْدَهُ؛ وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامٌ، فَلْيُعْمَلْ كَذَلِكَ أَيْضًا." (لوقا ٣، ١١)

كما يقول الرّب:

- "مَنْ طَلَبَ مِنْكَ شَيْئًا فَأَعْطِهِ؛ وَمَنْ اغْتَصَبَ مَالَكَ، فَلَا تُطَالِبْهُ." (لوقا ٦، ٣٠)

- "بِيعُوا مَا تَمْلِكُونَ وَأَعْطُوا صَدَقَةً، وَاجْعَلُوا لَكُمْ أَكْيَاسًا لَا تَبْلَى، كَنْزًا فِي السَّمَاوَاتِ لَا يَنْفَدُ، حَيْثُ لَا يَقْتَرِبُ لِصٌّ وَلَا يُفْسِدُ سُوسٌ. لِأَنَّهُ حَيْثُ يَكُونُ كَنْزُكُمْ، يَكُونُ قَلْبُكُمْ أَيْضًا." (لوقا ١٢، ٣٣-٣٤)

- "مَا مِنْ خَادِمٍ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِسَيِّدَيْنِ: فَإِنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ أَحَدَهُمَا، فَيُحِبَّ الْآخَرَ؛ وَإِمَّا أَنْ يُلْتَحِقَ بِأَحَدِهِمَا، فَيُهْجَرَ الْآخَرَ. لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَكُونُوا عِبِيدًا لِلَّهِ وَالْمَالِ مَعًا." (لوقا ١٦، ١٣)

المهمّ إذاً هو أن نحسن اختيار الخيرات الحقيقيّة، كما يوضحه مثل الغني الجاهل (لوقا ١٢، ١٥-٢١) ومثل الغني السيّء ولعازر المسكين (لوقا ١٦، ١٩-٣١).

ب)- الفقر كمثّل أعلى إنجيلي

يشرح يسوع هذا المثل الأعلى الرسوليّ في لغة المرسلين المألوفة:

"وَأَوْصَاهُمْ أَنْ لَا يَحْمِلُوا لِلطَّرِيقِ شَيْئًا إِلَّا عَصًا، لَا خُبْزًا وَلَا زَادًا وَلَا مَالًا ضِمْنَ أَحْزِمَتِهِمْ، بَلْ يَنْتَعِلُوا حِذَاءً وَيَلْبَسُوا رِدَاءً وَاحِدًا." (مرقس ٦، ٨-٩)

وقد أعطى بنفسه المثل إذ "لَمْ يَكُنْ لَهُ مَكَانٌ يُسَدُّ إِلَيْهِ رَأْسَهُ"، وقد قال عنه بولس الرسول: "هو الذي افتقر من أجلكم ليغنيكم بفقره".

إنّ شرعة التطويبات العظمى (متى ٥)، وبخاصّة الأولى منها، تُظهر خطّ هذه التطويبات ومعناها: «طوبى للمساكين بالروح، فَإِنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ». إنّها إعادة الاعتبار المسيحانيّة للأناويم. فيسوع هو مسيح الفقراء والمساكين الذي جاء ليؤسّس ملكوت الله: "الطوبى!" ليست هتافاً ثورياً يسفّط فجأة من السماء، إنّها تتدرج في الخطّ الذي بدأت طلائعه منذ العهد القديم، حتى أنّنا نجد فيه عبارات مأخوذة منه حرفياً: "أَمَّا الْوَدَعَاءُ فَيَرِثُونَ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ." (مزمو ٣٧، ١١).

إذا كان يسوع يخاطب جمعاً متنوعاً أغلبيته من سواد الشعب، إلّا أنّه يتوجّه، ولو مواربة، إلى الفريسيين. فكلمة "طوبى" كان لها مدلول ديني مسيحاني، وكانت تُطبّق على جميع الذين لهم الحظّ في أن يكونوا مع المسيح في الملكوت. لا شك أنّ الفريسيين الذين كانوا يسمعونهم كانوا يفكّرون: "إنّه يقصدنا، فالطوبى لنا". لأنهم، بحسب الشريعة، هم الأبرار العارفون بالشريعة والمطبّقون لها. في حين أنّ جميع هؤلاء "الشياطين الفقراء" هم خطّاء، عشّارون، حثالة. ولكن، ها هو يسوع يعلن الطوبى بالتحديد لهؤلاء الأناويم المحتقرين. نعرف أنّ متى يحدّد "المساكين بالروح" أو "فقراء الروح" (أي الذين لهم قلب فقير)، في حين يقول لوقا ببساطة: "الفقراء"، مشدّداً على الطابع الاجتماعيّ للفقر.

جميع التطويبات الأخرى هي توضيح لهذه التطوية الأولى، وهي ترسم صورة الفقراء في نظر الإنجيل، فهم الودعاء، فاعلو السلام، الأنقياء القلوب، المضطهدون...

وهكذا، فالفقر الروحي، جوهرياً، لا يرتبط، على ما يبدو، بثروة الإنسان وممتلكاته، بل يتعلّق خصوصاً بمواقف القلب.

وهناك قول آخر من أقوال يسوع يلقي الضوء على الموضوع: "تَعَلَّمُوا مِنِّي فَإِنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعٌ الْقَلْبُ" (متى ١١، ٢٩). قد يكون يسوع قال: "أنا" أي واحد من "الأناويم"، وقد تكون الترجمة اليونانية قصدت شرح هذه الكلمة فقالت: وديع ومتواضع القلب. وربما كان هذا هو المفتاح لفهم حقيقة فقر القلب الإنجيلي.

يجدر بنا أن نتذكّر، في هذا الخط، النصوص التي تتكلّم على روحانيّة "الخادم" مثل: "مَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِيرَ عَظِيمًا بَيْنَكُمْ، فَلْيَكُنْ لَكُمْ خَادِمًا، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِيرَ أَوَّلًا فِيكُمْ، فَلْيَكُنْ لَكُمْ عَبْدًا، فَهَكَذَا ابْنُ الْإِنْسَانِ: قَدْ جَاءَ لَئِيُخْدَمَ، بَلْ لِيُخْدَمَ وَيَبْدُلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ." (متى ٢٦، ٢٠-٢٨)، مع المثل المؤثّر الذي أعطاه يسوع شخصياً عندما غسل أرجل تلاميذه (يوحنا ١٣). ينبغي أن نشير أيضاً إلى الدعوة الملحّة التي أطلقها يسوع للاتكّال الكامل على عناية الأب: أنظروا زنابق الحقل وطيور السماء (متى ٦، ٢٥-٣٤).

ونختم، مع أ. جيلان:

"الفقر الإنجيلي، في عمقه النهائي، هو "تخلّ جذري" وتواضع تامّ، وبالتالي ثقة لا متناهية أمام الله. إنّ الموقف الأساسي الذي بلّره الكتاب المقدّس في أفضل صفحاته، موقفٌ يُضفي على الخط الروحاني للشعب الإسرائيلي عظمته. وهو الموقف الذي عاشته مريم وأبرز قيمته يسوع، "الفقير بالروح" الذي عظّم الفقراء بالروح. ومنذئذٍ، أصبح يُفهم ذلك على أنّه سرّ القداسة بالذات.

أسئلة:

- ١- ما هي ردّات الفعل لديكم على خطوط التفكير الثلاثة؟ ولماذا؟
- ٢- هل يمكنكم أن تجدوا اليوم أمثلة على خطوط التفكير الثلاثة هذه؟
- ٣- ما رأيكم في أن نستعيد في حياتنا اليوم ما كان للسنة السبتيّة والسنة اليوبيليّة من معنى في العهد القديم؟ (إعادة الأشياء والأوضاع إلى ما كانت عليه).

الفصل الثاني

الفقر حولنا

صلاة محفورة على جدار معهد لإعادة التأهيل في نيويورك:

" طَلَبْتُ إِلَى اللَّهِ الْقُوَّةَ لِكِي أُصَلَّ إِلَى النِّجَاحِ، فَجَعَلَنِي ضَعِيفًا لِكِي أُتَعَلَّمَ التَّوَاضُعَ وَالطَّاعَةَ.
 طَلَبْتُ الصِّحَّةَ لِكِي أَقُومَ بِأُمُورٍ عَظِيمَةٍ، فَأَعْطَانِي الْعَاهَةَ لِكِي أَعْمَلَ أَعْمَالًا أَفْضَلَ.
 طَلَبْتُ الثَّرَوَةَ لِأَجْدِ السَّعَادَةَ، فَأَعْطَانِي الْفَقْرَ لِكِي أَكُونَ حَكِيمًا.
 طَلَبْتُ السُّلْطَةَ لِكِي أَحْصَلَ عَلَى تَقْدِيرِ النَّاسِ، فَأَعْطَانِي الضَّعْفَ لِكِي أَشْعُرَ بِالْحَاجَةِ إِلَى اللَّهِ.
 طَلَبْتُ رَفِيقًا لِكِي لَا أَعِيشَ وَحِيدًا، فَأَعْطَانِي قَلْبًا لِكِي أَحَبَّ جَمِيعَ إِخْوَتِي.
 طَلَبْتُ أَشْيَاءَ تُفْرِحُ حَيَاتِي كُلَّهَا، فَأَعْطَانِي الْحَيَاةَ لِكِي أَفْرَحَ بِكُلِّ الْأَشْيَاءِ.
 لَمْ أَحْصَلْ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا طَلَبْتَهُ، وَلَكِنِّي حَصَلْتُ عَلَى كُلِّ مَا رَجَوْتَهُ.
 فَصَلَّوَاتِي الَّتِي لَمْ أُعْبَرْ عَنْهَا اسْتُجِيبَتْ كُلَّهَا، غَضَبًا عَنِّي نَوْعًا مَا،
 وَهِيَ أَنَا الْأَغْنَى وَالْأَسْعَدُ بَيْنَ الْبَشَرِ. "

هذه الصلاة التي لا يُعرف مؤلِّفها تُزعج ما لدينا من فكرة عن الفقر، إذ كيف يمكن لرجل رُفِضَتْ جميع طلباته أن يعتبر نفسه الأغنى والأسعد؟ وهي تُجبرنا على التفكير في كيف نرسم في ذهننا حدود الفقر .

أولاً: من هم الفقراء؟

آ - فقراء إلى ماذا؟

ب - على أي فقر نتكلم؟

ثانياً: أين هم الفقراء؟

آ - الفقر في عالمنا

ب - الفقر على بابنا

ثالثاً: ما هي نسبة الفقراء؟

* * *

أولاً: مَنْ هم الفقراء؟

"الفقير هو من ليس له شيء، من لا يستطيع شيئاً، من لا يعرف شيئاً".

هذا التحديد للفقر، البسيط في ظاهره، يجعلنا نفكر في جميع الذين يعيشون يوماً بيوم، بلا حماية، بلا ضمانة، متعلقين باللحظة: ضحايا المجاعة، أو الكوارث والويلات، أو البطالة أو العنف.

أ) - فقراء إلى ماذا؟

الجواب الأبسط يرتبط بالحاجات المباشرة: الفقير هو من ليس له الحد الأدنى للحياة. وهذا الجواب يختلف بالطبع من بلد إلى بلد ومن عصر إلى آخر. فقيمة قطعة الخبز ليست نفسها في كل مكان وزمان. لكنّ المعنى واضح. فالفقير هو من لا يستطيع أن يأكل عندما يجوع أو أن يجد سقفاً ينام تحته أو أن يلقى العناية اللازمة عندما يمرض. وبكلمة، هو من لا يستطيع تأمين حاجاته الحيويّة. تلك هي علامة الفقر التي لا تُخطئ.

بنتيجة التحليل، يظهر الفقر على أنّه حرمان أو نقص: الفقير هو من "ليس" له.

قد يصل الحرمان إلى مدى بعيد جداً، إلى أبعد من الحاجات الحياتيّة: الغذاء، المأوى، العناية الصحيّة. إذ يمكن للمرء أن يكون أو أن يصبح فقيراً إلى خيارات قد لا تكون قابلة للقياس ولكنها ليست أقلّ جوهريّة للحياة الناجحة:

- **العاطفة والحنان:** هل أشدّ ألمًا على المرء من أن يجد نفسه وحيداً في الحياة أو أمام حدث معين؟ هل يمكن اعتبار رجلٍ كرّس نفسه لحياته المهنيّة الناجحة أم الفاشلة ولكنه لم يتسنّ له رؤية أولاده وهم يكبرون، هل يمكن اعتبار مثل هذا الرجل في آخر حياته غنياً؟ خصوصاً إذا كان أولاده يجدون صعوبة في الانخراط في المجتمع والعالم؟
- **الحرية:** كيف نحيا ملء الحياة إذا كنّا أسرى المحيط الذي نعيش فيه دون أن نجد السبيل إلى الخروج منه أو حتى إلى الابتعاد عنه ولو قليلاً؟
- **الوقت:** أي وقت أغنى من الوقت الذي يسمح للمرء بأن يرتاح وأن يفكر؟
- **المعنى الأخلاقي:** ما قيمة حياةٍ تتغذى ممّا هو دارج وشائع (على الموضة) دون أيّة مرجعيّة أدبيّة أو أخلاقيّة؟

إنّ نقص واحدة من هذه الثروات يمكن أن يؤدي إلى فقدان خطير في التوازن. وفي ذلك بالتأكيد علامة على أنّ الفقر ليس مادياً فقط. بل هو يمسّ أعماق الكائن البشري وأكثر ما فيه من إحساس ومشاعر.

فالإِنسان يمكن أن يكون فقيراً بسبب نقص المال. ويمكن أن يكون فقيراً أيضاً بسبب الفراغ العاطفي أو الأخلاقي أو الروحي.

(ب) - عن أي فقر نتكلم؟

"إِذْهَبْ وَبِعْ مَا تَمْلِكُهُ وَوَرِّعْ ثَمَنَهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاوَاتِ، وَتَعَالَ أَنْبَعِي!" (متى ١٩، ٢).

هذا النوع من الحرمان يختلف جوهرياً عن حرمان الذين لم تبتسم الحياة لهم. ولا يمكن وضع النوعين على المستوى نفسه. فالثاني هو غالباً فقر مفروض وصاحبه مضطرب إلى تحمله، في حين أن النوع الأول ينتج عن اختيار الإنسان وقراره الحر بتلبية دعوة المسيح للتخلي عن جميع الخيرات واتباعه. الثاني هو شر مطلق لا يمكن لأحد، مسيحي أم لا، أن يقبل به. إنه الأكثر شيوعاً والأصعب محاربة، بينما الأول هو نوع من التقشف الطوعي لأنه ينبوع حياة. وهو غالباً خفي كما أنه دائماً في خدمة الله أو في خدمة البشر مهما كانت طريقة ممارسته والتعبير عنه:

- الحياة ضمن جماعات دينية تعتمد نذر الفقر.
 - الالتزام في جماعات تتبع خطى الجماعات المسيحية الأولى في أنماط من الحياة الروحانية أو النسكية في التجرد الكامل والابتعاد عن العالم.
 - الالتزام في خدمة الفقراء داخل جماعات أو جمعيات خيرية (كاريتاس، الأم تيريزا، الأخت إيماويل، أو حركات المحبة والإحسان (ATD-Quart Monde)).
 - تخصيص وقت لمنظمات الإغاثة الإنسانية أو الاجتماعية، أو أحياناً، اختيار مهنة بدافع التمكّن من خلالها من خدمة الآخرين (في حقل الصحة أو التربية، أو التعاون الأخوي مثلاً).
- هؤلاء "الفقراء"، على مثال الرسل في زمانهم، يؤدّون شهادة قوية على التزامهم. ووجههم يشعّ بالنور.

ثانياً: أين هم الفقراء؟

من لم يسمع يوماً أو لم يشهد قصة شخص من جيرانه وُجد ميتاً على بعد خطوات منه دون أن يدري به أو يشعر بما يحصل له؟

لا يجدر بنا أن نخدع أنفسنا، فالفقر موجود بيننا، وأحياناً على باب بيتنا. وسواء كان واضحاً أم مبهماً، ظاهراً أم خفياً، فهو حاضر في كل مكان.

(أ) - الفقر في عالمنا

تقليدياً، يبقى الفقر معشّشاً في مناطق جغرافية محدّدة.

- على صعيد العالم، في ثلاث قارات من نصف الكرة الأرضية الجنوبي (أفريقيا، نصف القارة الآسيوية الهندي، والأمريكيتين الوسطى والجنوبية). في حين أن البلدان الغنية تقع في نصف الكرة الشمالي.
- على مستوى البلدان، في ضواحي المدن أو في أحياء محدّدة (في أحياء الصفائح التكتيكية، ووسط المدن الكبرى والأحياء المغلقة المعزولة)، وفي الأماكن البعيدة عن الأحياء السكنية الكائنة في وسط المدن أو الضواحي.
- غالباً ما يكون التنقل داخل هذه الأماكن أمراً بالغ الصعوبة وأحياناً محفوفاً بالخطر (حي هارلم في نيويورك) أو مستحيلاً (حدود مغلقة، أحياء معزولة للأغنياء أو للفقراء)، وإن كان الضغط قوياً لفتح ثغرات: ضغط الشعوب الفقيرة على حدود البلدان الغنية، التسوّل في المدن الكبرى. وبالفعل، هناك جاذبيات قوية تُسهم في بلورة مثل هذا النوع من الانغلاق داخل الحواجز:
- تبقى الهوة بين الفقراء والأغنياء (على الصعيد الدولي والوطني) مرتفعة لا بل تتزايد باستمرار. دون أن يُحدث الارتفاع العام في مستوى المعيشة على المدى الطويل أيّ تغيير يذكر: فازدياد الثروات لا يقلّص الفقر ولا المناطق التي ينتشر فيها.
- تتأثر البلدان الفقيرة نسبياً أكثر من البلدان الغنية بالكوارث التي تجتاح العصر، سواء كانت صحية (السيدا) أو بيئية (الأعاصير، التلوّث)، مضيئة إلى مشاكلها الأصلية مشاكل جديدة.

(ب) - الفقر على بابنا

- من دون أن نؤكد أنّ الفقر اليوم ظاهر أكثر منه بالأمس، من المحتمل أنّه أكثر حضوراً في محيطنا اليوميّ، وذلك بطريقتين:
- ازدياد الهجرة من الريف إلى المدن الذي زاد من بروز سمات الفقر مع تكاثر الضواحي حول المدن الكبرى حيث يتكدّس السكّان المقتلّعون غالباً من جذورهم، والذي خفّف محتوى الفقر أو دَوّبّه، وقد كان في السابق مركزاً في أماكن محدّدة (نتذكّر بيوت التنك التي كانت معروفة في السنوات الأولى لإنشاء ATD-Quart Monde)، فأصبح تحديد مناطق الفقر اليوم أصعب بسبب ظهور أشكال جديدة من الفقر أكثر انتشاراً وتعقيداً وهي تمسّ فئات أوسع من السكّان لا تقم جميعها في بيوت من تنك. إنّ "علامات الفقر الخارجية" أصبحت لا تُرى ولا يمكن حصرها بسهولة.
 - انتقال المعلومات بسرعة كبيرة وتطوّر وسائل الاتصالات الحالية لم تعد تسمّح بالقول: "لم أكن أعلم...". فاليوم كلّ الناس تعرف. طبعاً باستثناء من لا يريد أن يعرف. فمن يستطيع مثلاً أن

يدّعي عدم معرفته الأمّ تيريزا؟ لعلّ إحدى هذه "الحيل" التي يملك التاريخ سرّها قد تكون بروز وسائل الاتّصالات الحديثة كوسائل رائعة لتوعية البشريّة! وكذلك الأمر بالنسبة لعولمة التبادلات. فمع تسارع التطوّرات وما تستتبعه من ازدياد في العلاقات والروابط بين الاقتصادات يمكن أن تشكّل عولمة التبادلات مناسبة استثنائية للتكامل بين جميع الاقتصادات، بما فيها الأكثر فقرًا، ضمن سلسلة التبادلات الدوليّة.

ثالثًا: ما هي نسبة الفقراء؟

إنّ الإحصاءات حول الفقر في العالم متوقّرة. وهي، ولأسباب بديهية، تتمحور في الغالب حول معطيات كميّة. أمّا أشكالها الأخرى (النفسية، العاطفية، إلخ...) فالإحاطة بها أكثر صعوبة. في العالم اليوم، رسميًا، بحسب إحدى الدراسات المتوقّرة (صندوق الأمم المتّحدة للسكان، أيلول ١٩٩٩)، مليار ونصف من الأشخاص الذين يعيشون في حالة فقر، و ١ على ٤ من السكان يعيشون بما يعادل دولارًا أميركيًا واحدًا في اليوم أو أقلّ.

أرقام أخرى تنطق بذاتها: من أصل ٤.٨ مليارًا يشكّلون سكّان البلدان النامية، نجد:

- ٦٠٪ محرومين من العناية الصحيّة الأوليّة،

- ٣٠٪ لا تتوفّر لهم المياه النظيفة،

- ٢٥٪ ينقصهم المسكن المناسب،

- ٢٠٪ من الأولاد لا يتسنّى لهم متابعة دراسة ابتدائية كاملة.

للحصول على دراسة أعمق وأشمل لظاهرة الفقر ينبغي استكمال هذه الأرقام بمؤشّرات من طبيعة مختلفة: حالات الانهيار العصبيّ، الاكتئاب، الانتحار...

وأيا كانت هذه المكملات ونوعيّة التحقيقات والدراسات، فمن المهمّ أن نضع صورة العالم الذي تظهره لنا في منظور يسمح بإلقاء الضوء على مسار التطوّر. وبدون ذلك، لا يمكن للصورة إلّا أن تأتي مشوّهة أو ناقصة.

وفي هذا الصدد، إنّ حالة العالم الحاضرة تتدرج ضمن ديناميّة مزدوجة:

- اتّجاه تاريخيّ إلى ارتفاع مستوى المعيشة العام لدى البشريّة. نكتفي بأمثلة بسيطة: الماء، الكهرباء، الهاتف، ومؤخّرًا الإنترنت، هي من مكتسبات القرن العشرين الأكثر انتشارًا.

- اتّجاه إلى اتّساع الهوة، مؤخّراً (السنوات العشر الأخيرة) وازدياد الفوارق بين الأكثر غنى والأكثر فقراً. فالعالم الذي يرسم أمام نظرنا يتعرّض لخطرٍ حقيقيّ: أن يتركز في جزءٍ محدّد من الكرة الأرضيّة تُستبعد منه مناطقٌ معيّنةٌ بكاملها (قسم كبير من أفريقيا بشكل خاص).

هذان الاتجاهان ليسا متناقضين إلّا في الظاهر:

- إذ إنّ تحسّن مستوى المعيشة، ولو بشكل متفاوت، مفتوحٌ أمام الجميع. وهكذا، فالجوع، مثلاً، اختفى من الصين في بضع سنوات.
- يضاف إلى ذلك أنّ التاريخ لم يشهد عملية نموّ توزّعت بشكل متجانس، فهل أنّ ازدياد اللامساواة يكفي بحدّ ذاته لإدانة نموّ الثروات؟

أسئلة:

- ١- هل للفقر، بالنسبة إلينا، وجهٌ غير محدّد؟ وهل نستطيع أن نعطيّه وجهًا معيّنًا؟ ماذا بشأن قريبنا، والأشخاص الذين هم حولنا؟
- ٢- هل من علاقة بين هاتين الفئتين من التعابير: محاربة الفقر، تقدّم، نموّ، تطوّر، ازدياد الثروة، ربح، من جهة، ومحاربة الفقر، تقاسم، تضامن، عدالة، مساواة، من جهة أخرى؟
- ٣- ما هي المبادرة الملموسة التي يمكن أن نقوم بها تجاه "الفقراء" الموجودين في محيطنا القريب؟

الفصل الثالث

الفقر المادي والفقر الروحي

صلاة حول التطويات

رؤيتان للتطويات:

" طوبى لكم أيها المساكين، لأنَّ لكم ملكوت الله!
 طوبى لكم أيها الجياع الآن، لأنَّكم ستشبعون.
 طوبى لكم أيها الباكون الآن، لأنَّكم ستضحكون.
 طوبى لكم إذا أبغضكم الناس وطرّدوكم وعَيروكم ونبذوكم نَبذَ الأشرارِ مِنْ أَجْلِ ابْنِ الإنسانِ.
 إفرحوا في ذلك اليوم وأبتهجوا، لأنَّ أجرَكم عظيمٌ في السَّماءِ. فهكذا فعلَ أبائهم بالأنبياءِ.
 لكن الويلُّ لكم أيها الأغنياءُ، لأنَّكم نلتم عزاءكم.
 الويلُّ لكم أيها الذين يشبعون الآن، لأنَّكم ستجوعون.
 الويلُّ لكم أيها الضاحكون الآن، لأنَّكم ستحزنون وتبكون.
 الويلُّ لكم إذا مدحكم جميعُ الناسِ، فهكذا فعلَ أبائهم بالأنبياءِ الكذبةِ."

(لوقا ٦، ٢٠-٢٦)

" طوبى للمساكين في الرُّوح، لأنَّ لهم ملكوت السَّمواتِ.
 طوبى للمحزونين، لأنَّهم يُعزَّون.
 طوبى للودعاء، لأنَّهم يرثون الأرضَ.
 طوبى للجياع والعطاش إلى الحقِّ، لأنَّهم يشبعون.
 طوبى للرَّحماء، لأنَّهم يُرحمون.
 طوبى لأنقياء القلوب، لأنَّهم يُشاهدون الله.
 طوبى لصانعي السَّلام، لأنَّهم أبناء الله يُدعون.
 طوبى للمضطهدين مِنْ أَجْلِ الحقِّ، لأنَّ لهم ملكوت السَّمواتِ.
 طوبى لكم إذا عَيروكم وأضطهَدوكم وقالوا عليكم كذِبًا كُلَّ كَلِمَةٍ سَوْءٍ مِنْ أَجْلِ.
 أفرحوا وأبتهجوا، لأنَّ أجرَكم في السَّمواتِ عظيمٌ. هكذا اضطهَدوا الأنبياء قبلكم."

(متى ٥، ٣-١٢)

" نحن جميعًا فقراء في وقت أو في آخر، ساعة عدم الفهم أو الفشل أو المرض أو الموت".
 مثل هذا التأكيد الذي نسمعه غالبًا يجعلنا نفكر أولاً في الفقر المادي. فساعة الموت، في الواقع، لا يعود لدينا شيء، ونترك هذا العالم دون ثرواتنا. كما أنَّ هذا التأكيد يوحي بشكلٍ آخر من أشكال الفقر، شكلٍ أكثر دقة وخفاء، يتعلّق بأوقات الألم الأدبي أو النفسي أو الروحي.

هل يلتقي هذان الوجهان من أوجه الفقر: الفقر الماديّ والفقر الروحيّ؟ أم إنّهما من مستويين مختلفين؟ ألا يواجه الأغنياء والفقراء في حياتهم اليومية، برضاهم أو بالرغم منهم، الأوضاع عينها، أو أوضاعاً إن لم تكن بالضرورة متماثلة، فهي تثير الأسئلة عينها وتُظهِر في القلب أو النفس ردّاتِ فعلٍ لا علاقة لها بمحفظة النقود ومحتواها؟

أبعد من الفوارق البديهية بين شكليّ الفقر الماديّ والروحيّ، هناك أمور كثيرة تربط بينهما، ويكفي للتذكير بها مثل هذا التأمل البسيط في الألم والفشل والموت.

أولاً: الفقر ذو الوجهين

آ - الفقر الماديّ

١- الفقر ينجم عن عدم وجود قواعد للعبة

٢- الفقر ينجم عن نقص في المبادرة لدى الأفراد

ب- الفقر الروحيّ

ثانياً: وجهان ونظرة واحدة

آ - الغنى الماديّ والفقر الروحيّ

ب- الفقر الماديّ وفقر القلب

* * *

أولاً: الفقر ذو الوجهين

آ - الفقر الماديّ

الفقير هو من ليس له شيء، وبالتحديد أدقّ، من ليس له إلا الحد الأدنى للحياة (أن يأكل عندما يجوع وأن ينام في فراش وأن يلقى العناية عندما يمرض).

الفقر ليس البؤس، إذ في البؤس لا يكون الحد الأدنى الحياتي مؤمناً (لا مسكن، لا خبز، وحياة تشرد). الفقر هو العوز أو الفاقة، والعيش يوماً بيوم، والحرمان على كافة الصعد. الفقر هو أن تكون حياتك مرتبطة بالآخرين، بالمجتمع، بأحداث الحياة. والفقير هو عكس السنجاب، أي من ليس له شيئاً يحتفظ به ليوافه صعوبات الحياة ومفاجأتها القاسية أو ليتغلب عليها. فهو يعيش في القلق من الغد، وكلّ صباح يمكن أن يشكّل له محنة جديدة.

والفقر في الحياة العملية يتطور ويختلف:

- في الزمان: فماذا يجمع بين فقير نهاية القرن العشرين والفقير منذ ثلاثة أو أربعة قرون؟
- وفي المكان: فالفقر في فرنسا لا يمكن مقارنته بالفقر في إفريقيا مثلاً.

والفقراء اليوم ليسوا بالضرورة فقراء الأمس، وفقراء الغد قد يكونون مختلفين عن فقراء اليوم (على مستوى البلدان، عبارة "البلدان الصناعية الجديدة" المستعملة في الأوساط الدولية ذات دلالة واضحة في هذا الشأن)، وما يمكن أن يبدو حالة فقر في ظروف وأوضاع معينة لا يعتبر بالضرورة كذلك على بعد بضعة مئات من الكيلومترات.

قد يصعب تعداد أشكال الفقر تعداداً حصرياً، بل قد ينطوي ذلك على نوع من الخداع لكثرة ما في مظاهر الفقر من تعقيدات مما يجعل حصر هذه الأشكال في لائحة بسيطة أمراً متعذراً لكونها عرضة للتغيرات والتقلبات المختلفة في الزمان والمكان. ومع ذلك، يمكننا أن نحاول إبراز بعض سماتها الأكثر تأثيراً:

- مدخول ماليّ ضعيف وغير منتظم في الغالب،
- وضع شخصيّ أو عائليّ أو اجتماعيّ غير مستقرّ،
- تعذّر الحصول على التربية والتعليم وعلى الصّحة والثّقافة وعلى العطل والإجازات،
- عدم وجود الفائض القليل أو ما يُمكن من الخروج من الرتابة اليوميّة،
- عدم الاستقلاليّة تجاه المجموعة، أكان الأمر يتعلّق بالتقديمات الاجتماعيّة أم بالإعانات والمساعدات من أيّ نوع كانت، أو حتى بالصدقة في الشوارع (التسوّل)،
- الهشاشة أو ضعف المناعة والصمود أمام الأمراض والأوبئة والمصائب.

إنّ البحث في سبب الفقر الماديّ يفتح الباب واسعاً أمام النقاش الغنيّ بالتعليم والمحاكاة، أكان ذلك على الصعيد الوطنيّ أو الدوليّ. باختصار، يمكن القول إنّ هناك نظريّتين تتجابهان:

١- الفقر ينجم عن عدم وجود قواعد للعبة

الأقوياء أو الشطّار أو، ببساطة، المحظوظون يستفيدون من الأوضاع ليغتنوا على حساب الأكثر عوزاً فيستبعدونهم ويستغلّونهم. وعلى الصعيد الدوليّ، الدول المتطوّرة متهمّة أيضاً بالإثراء على حساب البلدان الفقيرة وهي تنهبها وتستغلّ خيراتها لقاء القليل القليل (المواد الأوليّة، اليد العاملة).

إنّ تحديد نظام إقتصاديّ واجتماعيّ يقوم على قواعد ملزمة، والتدخّل من قبل المجتمع الدوليّ وهيئاته (الدول والمنظّمات الدوليّة) لتطبيق هذا النظام هما الحدّ الأدنى المطلوب لتأمين توزيع أفضل للثروات.

٢- الفقر ينجم عن نقص في المبادرة لدى الأفراد

لقد تعود الأفراد أكثر من اللازم أن يكونوا على عاتق المجتمع ولم يعد لديهم الرغبة والحوافز للعمل. كل واحد له فرصته ووزناته، وعليه أن يثمرها.

على المجتمع أن لا يحدّ من المبادرات وأن لا يعيقها، فهي التي تخلق الثروات، ولها تأثير كبير على النمو الاقتصادي.

بحسب العصور والظروف والأوضاع، يتمّ التشديد على هذه المقاربة أو تلك، إلا أنّ النقاش يبقى قائماً وأحياناً عنيفاً، وكذلك البحث عن الحلّ الأفضل لمشاكل الفقر. يشهد على ذلك الأفكار والأبحاث الجارية في البلدان الغنيّة حول الأولويّة الواجب إعطاؤها للمساعدة أم للعمل (راجع النقاش الحالي في فرنسا حول "الدولة-العناية" Etat-Providence، والجدل الدائر في بريطانيا حول الانتقال من "دولة الرخاء" Welfare State إلى "دولة العمل" Workfare State). أمّا في البلدان الفقيرة، فإنّ موضوع مسؤوليّة النُخب التي تهتمّ بمستقبلها الخاص ومصالحها أكثر من اهتمامها بنموّ بلدها هو موضوع مطروحٍ وعلى المستوى عينه إلى جانب المواضيع أو بالأحرى العلل الأخرى (كالفساد، وسوء الإدارة، والمحسوبيّة...).

استنتاج، ولو مؤقت، يفرض نفسه: إنّ تحليل أسباب الفقر يفرض عدم الاكتفاء بالتحليلات المبسّطة.

(ب) - الفقر الروحي

يمكن اختصار الفقر الروحيّ بأنّه حالة النفس التي هي مزيج من الإصغاء وبذل الذات وقبول الآخرين والأحداث قبولاً تامّاً والتخلّي الاختياريّ عن فرض النفس والرأي. الفقير روحياً هو الإنسان الواثق الذي يتكلّ على الله في شؤون حياته ويجد سعادته العظمى في الخضوع للإرادة الإلهيّة. الفقر الروحيّ هو الخروج من الذات والتجرّد.

وهو يتّخذ أشكالاً مختلفة:

- الصلاة (المناجاة والتأمّل)، كعلامة على أنّ الربّ هو نقطة الانطلاق ونقطة الوصول في كلّ شيء.
- تجاوز الذات، لم تُعط الحياة لكي نكدّس الخيرات وننام على الأمجاد. الرجل الفقير روحياً هو الذي يشعر بالحاجة لأن يبحث، لأن يمضي دائماً إلى الأبعد. فهو لا يشبع أبداً. ولديه "الشجاعة على أن يخاف" (الأب مولينييه الدومينيكي).
- التواضع، كعربون وضامن لإصغاءٍ أفضل ولاستعدادٍ أكبر لوضع النفس في تصرف الآخرين وخدمتهم والاعتراف بهم وقبول أفكارهم وآرائهم ومشاكلهم ومعتقداتهم. إنّه

العكس تمامًا لما يصفه الأب فاريون بالغني " الذي لا يحتاج إلى أن يطلب " لأنه يكتفي بنفسه.

الفقر الروحي يُطلق قوّة داخلية لا تتزعزع، قوّة مُشعّة في الغالب. فهو قائم في الله ويُشعّ الله.

ثانيًا: وجهان ونظرة واحدة

" بالإمكان الكلام على هذا الفقر القائم على مستوى القلب أمام جميع الناس بصرف النظر عن أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، مع أنّ هذه الأوضاع يمكن أن تتأثر إلى حدّ كبير بهذه الفضيلة الداخلية " (القدّيس أمبروسيو).

هذه الجملة تُطرح في بضع كلمات بسيطة موضوع الارتباط بين الفقر الماديّ والفقر الروحيّ. ويمكن اختصار ذلك في سؤالين أساسيين يعنينا جميع المسيحيين أيًا كانوا:

- هل يمكن للمرء أن يكون غنيًا وفي الوقت عينه فقيرًا روحيًا؟
- هل الفقر المادي ضماناً لفقر القلب؟

أ) - الغنى الماديّ والفقر الروحيّ

" إنّه لأسهلُ أنْ يَدْخُلَ الْجَمَلُ فِي نَقَبِ إِبْرَةٍ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ الْغَنِيُّ مَلَكُوتَ اللَّهِ."

إذا أخذنا النصّ على حرفيته، يبدو تحذيرُ يسوع واضحًا: باب ملكوت السموات ليس موصدًا في وجه الغني، ولكنّ الغني يُشكّل عقبة أمام خلاصه. في موضع آخر من الإنجيل، يشرح الربّ بالطريقة نفسها أنّه لا يمكننا في آن واحد أن نخدم ربّين: الله والمال. وقد استنتجت الرهبانيّات من هذا الكلام استنتاجًا بسيطًا فرضت على أعضائها نذر الفقر.

هل يجب على المسيحيّ أن يستنير بروح الفقر؟ وهل يشكّل الفقر الماديّ المثل الأعلى المسيحيّ الوحيد الذي يستحقّ هذه التسمية؟ أية نظرة يجب أن تكون لدينا تجاه الفقر؟ لا نستطيع التملّص من هذه الأسئلة إلّا إذا اعتبرنا أنّ كلام يسوع إلى الشابّ الغني موجه حصراً إلى من كانت دعوتهم خدمة الربّ داخل كنيسة بعد إبراز نذر الفقر.

ويجب ألا ننسى أنّ المسيح لم يقصد إدانة الغني بحدّ ذاته، بل تحذيرنا من أخطاره وتوعيتنا على استعماله بروح الإنجيل.

(ب) - الفقر المادي وفقر القلب

ليلة الميلاد، أعطى رجل لا يملك شيئاً القطع النقدية القليلة التي حصل عليها من تجواله في الشوارع (وهي كنز بالنسبة إليه) إلى أولاد مرضى في المستشفى. هذه القصة الحقيقية هي بالتأكيد مدعاة للتأمل.

إنّ ما يستتبعه الفقر من أشكال الحرمان الحقيقي، والحرمان الذي له وقع الحرمان الحقيقي، يمكن في الواقع أن يؤدي إلى قساوة قلب غير عادية، وحتى إلى ردات فعل عنيفة وعدائية:

- روح الانتقام والحسد والغيرة تجاه الذين يملكون الثروات (حقد وكراهية)،
- مشاحنات بين المنبوذين للحفاظ على ثروة مفترضة،
- الثورة واليأس.

إنّ الفقر المادي وفقر الروح ليسا مترابطين لدرجة جعل الأول شرطاً للثاني إلا في حالة واحدة هي حالة **الفقر الاختياري**. وحتى في هذه الحالة ليس فرنسيس الأسيزي كل من أراد أن يكونه.

وبالعكس، يمكن أن يصبح الفقر المادي طريقاً مسدوداً ميؤوساً منه بحيث يصعب بل يستحيل على المرء الخروج منه سالمًا. لا يقدر الإنسان المسيحي أن يدعي الملائكية فيتجاهل هذه الحقيقة، أو الأسوأ من ذلك أن لا يهتم بها.

وهكذا، يجدر التساؤل:

- ماذا يمكن أن تعني كرامة الفقير للذين لديهم كل شيء؟ ماذا يجب عمله بشكل ملموس لكي نعطي الفقير كرامته أو نعيدها إليه؟
- ماذا نعرف عن الفقراء؟ هل نعرف عالمهم من خلال الكتب فقط؟ هل فكّرنا يوماً كالمسيح بأن نستقبل بعضهم على مائدتنا؟ كيف نختار أصدقاءنا؟
- وبالعكس، هل تساءلنا يوماً كيف ينظر الفقراء إلى الأغنياء وتصرفاتهم؟
- وبشكل أعمق، هل نعرف كيف ننظر إلى تصرفاتنا نظرة تمييز لكي نتبين ما فيها من تصرفات الأغنياء وتصرفات الفقراء؟

أسئلة :

١. هل الفقر المادي والفقر الروحي مترابطان أم مستقلان؟
 ٢. من هو الغني في مثل الوزنات؟
 ٣. ماذا نتقاسم مع الآخرين وكيف؟
 ٤. ماذا نقول لأولادنا؟ كيف نُوعِيهم على حقائق الغنى والفقر؟
 ٥. بعد دراسة هذا الموضوع، عمّ نحن مستعدّون أن نتخلّى بشكل نهائي؟ عن واحد من طباعنا؟
عن إحدى عاداتنا؟ عن رخائنا المادي؟
- قد يشكّل الجواب على هذا السؤال موضوعًا لحوارٍ بين الزوجين يمكن أن يؤدي إلى اعتماد قاعدة حياة (لكلٍ منهما أو لهما معًا).

التطويبات بشكل آخر:

(لِتَأْمُلِ لَا يَخْلُو مِنَ الْفَكَاهَةِ، قَدْ يَكُونُ وَسِيلَةً لِعَدَمِ الْمَبَالِغَةِ فِي أَخْذِ أَنْفُسِنَا عَلَى مَحْمَلِ الْجَدِّ ...)

طوبى للذين يعرفون أن يضحكوا على أنفسهم، فإنهم يتسلون كثيرا.

طوبى للذين يعرفون أن يميزوا الجبل من كومة التراب، فإنهم يوقرون على أنفسهم الكثير من المشاكل.

طوبى للذين ينظرون أين يضعون أقدامهم، فإنهم يتجنبون قشر الموز.

طوبى للذين يستطيعون أن يرتاحوا أو يناموا دون أن يفتشوا عن الأعداء، فإنهم يصبحون حكما.

طوبى للذين يعرفون أن يسكتوا وأن يصغوا، فإنهم سيتعلمون من ذلك أمورا جديدة.

طوبى للذين هم من الذكاء بحيث لا يأخذون أنفسهم على محمل الجد، فإنهم سيلاقون التقدير من محيطهم.

طوبى للذين ينتبهون لحاجات الآخرين دون أن يظنوا أنه لا يمكن الاستغناء عنهم، فإنهم يزرعون الفرح.

طوبى لكم إذا عرفتم أن تنظروا بجدية إلى الأمور الصغيرة وبسلام إلى الأمور الجدية، فإنكم تمضون في الحياة بعيدا.

طوبى لكم إذا عرفتم كيف تعجبون بابتسامة وتنسون تكشيرة، فإن الشمس ستضيء دربكم.

طوبى لكم إذا كنتم قادرين على أن تظنوا خيرا بمواقف الآخرين حتى ولو كانت المظاهر عكس ذلك، فإنكم ستهتبرون سادجين، ولكن هذا هو ثمن المحبة.

طوبى للذين يفكرون قبل أن يعملوا ويصلون قبل أن يفكروا، فإنهم يتجنبون الكثير من الحماقات.

طوبى لكم إذا عرفتم أن تصمتوا وتبتسموا حتى عندما يقاطعونكم أو عندما يعارضونكم، أو عندما يدوسون على أقدامكم، فإن الإنجيل قد بدأ يدخل إلى قلبكم.

طوبى لكم خاصة إذا عرفتم كيف تتعرفون إلى الرب في جميع الذين حولكم، فإنكم قد وجدتم النور والحكمة الحقيقية.

الفصل الرابع روح الفقر الإنجيلي

"تعلّموا منّي فأنيّ وديع ومتواضع القلب" (متّى ١١، ٢٩)

عندما قال يسوع هذا القول، وضع نفسه في عداد "الأناويم"، مساكين الله. ولكنّه، وبدون شكّ، قد أعطى تعريفاً لما نسمّيه روح الفقر الإنجيلي. فالمسألة ليست مسألة مال، كما قد نظنّ، إنّها مسألة روح واستعداد قلبيّ. هذا لا يعني أنّ العلاقة بالمال لا أهميّة لها، ولكنّ هذه العلاقة لا يمكن أن تُعاش مسيحياً و"إنجيلياً" بدون فقر القلب. لأنّه يمكن للمرء أن يكون فقيراً بالفعل دون أن يكون فقير القلب.

هناك طريقة تربويّة، ثمينة في الغالب، هي طريقة التعريف والوصف بالعكس، سنحاول استعمالها لنتبيّن التصرفات المعاكسة لروح الفقر، وبخاصّة الكبرياء وقساوة القلب.

٢. الوطنية

أولاً: كبرياء العقل والذكاء والمواهب

٣. المناطقية

الطبيعيّة

(ب) - كبرياء الطبقة الاجتماعية

ثانياً: كبرياء الفضيلة

١. تجاه "الطبقة الأخرى" ككل

(أ) - عقليّة "البار"

٢. تجاه الأفراد

١. مناطق الظلال

٣. تجاه "العلاقات الاجتماعية"

٢. هيكلية الخطيّة

٤. وفي الكنيسة؟

٣. التعلّق بحقوقنا

رابعاً: كبرياء "الأنا"

(ب) - إحتقار الخطأة

(أ) - حبّ السلطة أو الرئاسة أو القيادة

ثالثاً: كبرياء الطبقة

(ب) - حبّ الشهرة

(أ) - كبرياء العرق

(ج) - حبّ الظهور

١. العنصرية البحتة

أولاً: كبرياء العقل والذكاء والمواهب الطبيعيّة

النَّاس لا يولدون متساوين. قد يكونون متساوين في الحقوق، كما تؤكد شرعة حقوق الإنسان، ولكنهم ليسوا كذلك في الواقع. فالبشر ليسوا متساوين من حيث الذكاء، ويمكن قياس الفروقات بينهم في حاصل الذكاء (IQ). وهناك مواهب فطرية موزعة بطريقة بعيدة جداً عن المساواة. بعض الناس لديهم موهبة الكلام، دون غيرهم. بعضهم يحسنون الرسم أو إجراء الإصلاحات الطارئة. وجميعهم لا يملكون نفس المهارة اليدوية ... باختصار، هناك لامساواة جديّة في توزيع المواهب الطبيعيّة بين البشر.

هل لنا الحقّ في التكبر من جرّاء ذلك؟ هناك نوع من الفخر، نوع من الكبرياء يمكن أن يشكل سندا لصاحبه. هذا، على ما يبدو، ما يظنّه الكاتب فرنسو مورياك لدى تيريز ديسكيرو. تقول عنها معلّمتها: "إنّ كبرياءها في كونها تنتمي إلى الصفوة البشرية تسندها أفضل ممّا يفعله الخوف من العقاب".

ولكن، كيف نتصرّف لكي نكون في روح الإنجيل؟

أ) - بدايةً، من الحماسة إنكار المواهب التي نلناها: بل يجب علينا الاعتراف بها. وإلاّ نقع في تواضع كاذب. فالتواضع لا يقوم على إنكار الواقع البديهيّ وعلى الكذب، حتى ولو ظنّنا أنّ ذلك من باب الفضيلة. التواضع هو بكل بساطة الاعتراف بالحقيقة. ولكن، دون أيّ ادّعاء أو احتقار للآخرين.

ب) - ويجب، تاليًا، أن نتعلّم معرفة أنفسنا معرفة جيّدة، لكي نشكر الله على ما نلناه من دون أيّ استحقاق ("أيّ شيء لك لم تتله؟") ولكي نتعلّم ممارسة أمثلة الوزنات الواردة في الإنجيل. إنّها أمثلة جديرة بأن تؤخذ على محمل الجدّ لأنّه سيتعيّن علينا تأدية الحساب عمّا نلناه في الأساس. فلن يكون بإمكاننا القول: "استلمت عشر وزنات فاستعملتها لصنع حلية وريش زيتت بها قبعتي". إذ علينا أن نبرّر طريقة استعمالنا لوزناتنا في خدمة الآخرين.

في موقفنا تجاه هذه المواهب الفطرية هناك ثلاثة أوقات أو ثلاث مراحل:

- شكر الله على ما وهبنا بالولادة،
- تثمير هذه المواهب في خدمة الآخرين،
- تأدية الحساب لمورّع المواهب كلّها.

كانت الأمّ تريزا تقول: لكلّ إنسان موهبته الشخصية. وهذا ما نختبره غالبًا في حياتنا العائليّة أو المهنيّة. المهم هو أن نكتشفها وأن نوظّفها.

ثانيًا: كبرياء الفضيلة

نعرف جيّدًا، أقلّه على صعيد المبادئ، أنّ الكبرياء تُفسد كلّ ما تمسّه، وأنّ إهداء الفضل في ما لنا من فضيلة والشعور بالرضا لما نتميّز به، ليس بالتصرّف الجديّ. فحتّى أفضل الأشياء وأجمل الخصال يمكن أن تتخرها سوسة التكبر التي يصعب كثيرًا اقتلاعها من جذورها. نعرف القول المأثور: "التواضع، يا للفضيلة الهزيلة! ما إن تظنّ أنّها لك حتى لا تعود لك!"

نعرف كذلك أيضًا، ونظريًا، أنّ كلّ عطية صالحة هي من الله، كما يقول القديس يعقوب. ونعرف أنّنا مُخلّصون، مُفندون، وأنّ نعمة الله تعمل فينا كلّ ما هو صالح.

ولكن، في الممارسة؟

يبدو فريسيّ المثل (لوقا ١٨، ٩ وما يليها) كمثال لما يجب علينا أن نتجنّب، "عقدة الفريسيّ" التي يمكن تحديدها بطريقتين أو موقفين: عقلية بارّ مستكملة باحتقار الخطأة.

آ - عقلية "البارّ"

هل نعتبر أنفسنا أبرارًا؟ وهل نحن أبرار؟ هل لدينا مُركّب العقلاء، أصحاب الفضيلة؟ بالطبع، نحن نُعزّ بأننا خطأة، أمام الجميع، في كل احتفال إفخارستيّ، ولكن هل ذلك أكثر من مجرد ممارسة طقسية؟ في قرارة نفسنا، ما رأينا في ذلك؟ لا شك أنّنا نفكر، في أغلب الأحيان، في شيء من هذا النوع: بالرغم من كلّ شيء، عندما أنظر إلى نفسي لا أجد ما أفتخر به حقًا، ولكن عندما أنظر إلى الآخرين... "أو أيضًا: "عندما أنظر إلى نفسي أحزن، ولكن عندما أقارن نفسي بالآخرين أتعزّي."

التحليل المتبصّر يقودنا إلى التعمّق في ثلاثة اتجاهات:

١. مناطق الظلال

هل في حياتنا مناطق ظلال حيث لا نستطيع الرؤية عن قرب: أحقاد، رفض المغفرة، خلافات عائلية...؟ وماذا نقول عن خطايا اللسان التي يصفها القديس يعقوب بلغة فيها الكثير من الصور:

" ما أكثر ما نُخطئ جميعًا. وإذا كان أحدٌ لا يُخطئ في كلامه، فهو كاملٌ قديرٌ على ضبط جسده كلّهُ. خذوا الحيل مثلًا، فحين نضع اللجام في أفواهنا لتطاولنا، نقودها بجميع جسدها. والسفن على صخامتها وشدة الرياح التي تدفعها، نقودها دفة صغيرة حيث يشاء الربان. وهكذا اللسان، فهو عضو صغيرٌ ولكن ما يُفاجر به كبيرٌ.

أنظروا ما أصغر النار التي تحرق غابة كبيرة! واللسان نارٌ، وهو بين أعضاء الجسد عالمٌ من الشرور يُنجس الجسد بكامله ويحرق مجرى الطبيعة كلّها بنارٍ هي من نار جهنم. ويُمكن

لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُسَيِّطَرَ عَلَى الْوُحُوشِ وَالطُّيُورِ وَالزَّحَافَاتِ وَالْأَسْمَاكِ، وَأَمَّا اللِّسَانُ فَلَا يُمَكِّنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُسَيِّطَرَ عَلَيْهِ. فَهُوَ شَرٌّ لَا ضَابِطَ لَهُ، مُمْتَلِئٌ بِالسُّمِّ الْمُمِيتِ. " (يعقوب ٣، ٢-٨)

وماذا نقول عن الخلافات والمخاصمات والشجارات بين المسيحيين أنفسهم؟

" مِنْ أَيْنَ الْقِتَالُ وَالْخِصَامُ بَيْنَكُمْ؟ أَمَا هِيَ مِنْ أَهْوَائِكُمْ الْمُتَّصِرَةِ فِي أَجْسَادِكُمْ؟ تَشْتَهُونَ وَلَا تَمْتَلِكُونَ فَتَقْتُلُونَ. تَحْسُدُونَ وَتَعْجِزُونَ أَنْ تَنَالُوا فَتُخَاصِمُونَ وَتُقَاتِلُونَ. أَنْتُمْ مَحْرُومُونَ لِأَنَّكُمْ لَا تَطْلُبُونَ. " (يعقوب ٤، ١-٢)

٢. هيكليات الخطيئة

هل نحن مدركون أننا نشارك في ما يسمّى اليوم بهيكليات الخطيئة؟ نحن جزء من خطيئة العالم. " لأني جعت فما أطمعتموني... " (متى ٣١، ٤٢). إنّ ما في العالم من مظالم وما في البلدان الفقيرة من أوضاع مأسوية هي بالتأكيد جديرة بالتأمل والتفكير.

فماذا نفعل تجاه هذا الوضع؟ وماذا يجب علينا أن نفعل؟ وماذا بوسعنا أن نفعل كلّ على مستواه؟

إذا كان الجواب على هذه التساؤلات غير واضح، فهناك شيء أكيد على الأقل: لا يمكننا الاطمئنان تمامًا إلى فضيلتنا وعدالتنا.

٣. التعلّق بحقوقنا

أيّ تعلّق لنا بالحقوق التي نطالب بها؟

إذا كنّا نمارس الفضيلة، هل ندرك وجوب أن تكون هذه الممارسة مجّانية أم أنّنا نكنز لأنفسنا للحياة الأبدية؟ هل إنّ التخلّي الذي نقوم به اليوم يجب أن يُكافأ في يوم من الأيام؟ وإلا، " فلن يكون ذلك عادلاً! " ومن لا يحسن الحسابات فهو ينال جزاء غلظه! هل هذه حقًا هي الروح الإنجيلية؟ الروح التي تدعو إلى المجّانية؟ (مجانًا أخذتم، مجانًا أعطوا!)، والتي تدفع إلى أن نسعى لخلاص الجميع، وليس " كلّ واحد لنفسه " أو " من بعدي الطوفان! "

(ب) - إحتقار الخطاة:

كيف نفهم كلمة "خاطئ"؟ هذه اللفظة لم تعد متداولة في عصر فقَدَ معنى الخطيئة. بحسب العبارة الرائجة "نحن مسؤولون لا مذنبون". إنّ كلمة "خاطئ" هي ثمرة حكم، والحكم والإدانة هما انحراف.

فبأيِّ حقٍّ نحكم على الآخرين؟ القضاة الموكلون بالحكم يُحيطون أنفسهم بألف وسيلة احتياطية واحترافية: التحقيقات، الاستجابات، المواجهات مع الشهود، المرافعات ... ونحن غالبًا ما نصدر الأحكام من دون أية معرفة.

لنُعد إلى رسالة القديس يعقوب: "لا يتكلّم بعضكم على بعض بالسوء، أيُّها الإخوة، لأنّ مَنْ يتكلّم بالسوء على أخيه أو يدين أخاه يتكلّم بالسوء على الشريعة ويدين الشريعة. وإذا كنت تدين الشريعة، فما أنت عاملٌ بها، بل ديان لها. هناك مُشترعٌ واحدٌ وديان واحدٌ، وهو الذي يقدر أن يُخلص وأن يهلك. فمن تكون أنت لتدين قريبك؟ (يعقوب ٤، ١١-١٢)

إنّ قساوة القلب هي غياب الرحمة. ونحن سنُدان على ذلك. " فتكلّموا وأعملوا مثل الذين سيدينهم الله بشريعة الحرّية، لأنّ الدينونة لا ترحم من لا يرحم، فالرحمة تنتصر على الدينونة. (يعقوب ٢، ١٢-١٣)

ثالثاً: كبرياء الطبقة

كلّ واحد منّا ينتمي إلى تاريخ خاصّ به. إنّ شرعية الانتماء التي تنتج عن ذلك تصبح غير سليمة إذا أدت بنا إلى شعور بالفوقية مرتبطاً بالعرق أو بالطبقة الاجتماعية.

أ- كبرياء العرق

لعلّه بسبب حالة واقعية ناجمة عن تزايد الهجرة وتمازج الشعوب (يتكلمون اليوم على عتبة إشباع لا ينبغي تجاوزها)، وعن الاختلافات في طرق الحياة التي يصعب غالباً التوفيق بينها، يمكن القول بلا تردد إنّ العنصرية هي ظاهرة لا تزال اليوم حاضرة بقوة في العالم.

وهي تظهر بأشكال ودرجات متنوّعة:

١. العنصرية البحتة:

إنّها تطرح في الغالب مشكلة سياسية حادة، ولكنها، للمسيحيين وقبل أيّ شيء آخر، مشكلة على صعيد الروح الإنجيلية ... هل نحن عنصريون؟ بالطبع لا! قليلون هم الأشخاص الذين يعترفون بأنهم عنصريون. ولكن...؟

قد يكون من المفيد أن نتفحص ردّات فعلنا العنصرية واللاإرادية ومركباتنا وعقدنا النفسية.

٢. الوطنية:

الشكل أقلّ خطورة، إنّما الأساس لا يختلف كثيراً. فالتعلق بالوطن وبقيمه هو أمر مشروع ومحمود. والروح الوطنية فضيلة قد تبلغ حدّ البطولة. ولكن، يجب أن لا تعاش الوطنية على أساس احتقار الآخرين وازدراءهم. في عالمنا الكثير من أشكال هذه الروح الوطنية البالغة الحماسة التي سرعان ما تتحوّل إلى عدائية للأجانب وانطواء على الذات.

٣. المناطقية:

حَقَل التاريخ على الدوام بقصص محزنة مضحكة، ولكنها مأسوية أيضًا، لما فيها من تناقضات وخلافات بين مدن متخاصمة أو بين مناطق متجاورة. ولكن ذلك يمكن أن يتطور أو أن يُوجَّح مواقف قلبية وتصرفات عملية هي أبعد ما يكون عن الروح الإنجيلية. وحتى الرياضة التي ينبغي أن تكون للاسترخاء والتنافس السلمي لم تسلم من مثل هذه المواقف والتصرفات.

(ب) - كبرياء الطبقة الاجتماعية:

إنَّ انقسام شعب ما إلى طبقات مختلفة هو بلا شك أمر لا يمكن تجنبه. حتَّى الأنظمة الشيوعية التي كانت تدَّعي إلغاء الامتيازات الاجتماعية لم تتجح في تسوية الفروقات بين الفئات. وحتَّى البلدان التي يتغنَّون فيها بالحرية الكاملة والفرص المتساوية أمام الجميع، لا تخلو من اللامساواة وغالبًا بشكل متزايد. وإذا كان ينبغي التكيف ربَّما مع هذا الواقع، فلا يمكن بحال من الأحوال القبول بتغذية هذه الآراء والمواقف المسبقة. وهي ولا شكَّ عديدة:

١. تجاه "الطبقة الأخرى" ككلَّ

الآراء المسبقة عن الطبقات، مثلها مثل العنصرية، ليست غالبًا في اتجاه واحد بل تكون عادة في الاتجاهين. ففي رأي العمَّال: "البورجوازيون" أشخاص لا يحتاجون إلى العمل أو إلا قليلًا! والبورجوازيون يعتقدون أنَّ الطبقة العاملة ما كانت يومًا قانعة بمصيرها وهي على استعداد دائم للإضراب. أمَّا الفلاحون فهم أيضًا لا يعجبهم العجب: فإمَّا أنها أمطرت كثيرًا، وإمَّا أنها لم تمطر أبدًا!

٢. تجاه الأفراد

غالبًا ما يكون الأشخاص مصنَّفين مسبقًا، ولمدى الحياة، كلَّ بحسب مولده (هذا الشخص من أصل وضيع)، أو بحسب وضعه الاجتماعي أو المهني. وهكذا، يصبح الفقراء بسهولة مشبوهين: في كتب الصلاة اليومية لما قبل المجمع الفاتيكاني الثاني، كنَّا نجد غالبًا في معرض الكلام على قدَّيس من القدَّيسين عبارة بالغة الدلالة من نوع: "وُلِد من والدين فقيرين، إنَّما شريفين".

٣. تجاه "العلاقات الاجتماعية"

المُهمُّ أن يتمسك المرء بمستواه الاجتماعي وأن يحافظ عليه. فلا يجدر بنا أن نعاشر بعض الفئات من الناس لأنَّ في ذلك انتقاصًا من مكانتنا (الغريب أنَّ الفوارق الاجتماعية الصغيرة هي التي نهتمُّ لها الأكثر). يشاهد في بعض الرعايا أشخاص يجلسون معًا في القدَّاس ويتقرَّبون إلى المناولة جنبًا إلى جنب، وبعد خروجهم من الكنيسة يعودون من جديد كالغرباء. وحتى في حركات مثل "فرق السيدة" قد نجد أحيانًا أمثلة مؤسفة على التناذب الطبقي.

٤. وفي الكنيسة؟

فيما مضى، وحتى زمن غير بعيد، كان في بعض الرعايا طبقات للزواج وللجنازات. وكان في الكنيسة مقاعد محفوظة ومحجوزة لبعض الأشخاص وأخرى لسائر الناس.

ولا نزال نجد حتى اليوم نوعاً من الطبقيّة بين الإكليروس والعلمانيين.

ولا يزال أيضاً، هناك الرجال وهناك النساء، مع أنّه لم يعد يخصّص لكلّ من الفئتين عموماً أماكن محدّدة في الكنيسة، إلاّ أنّهم لا يعاملون جميعاً في مساواة تامّة.

من ذلك كلّه، ماذا يدخل في إطار التنوّع المشروع؟ وماذا يصبّ في خانة اللامساواة الاجتماعيّة المجرّدة؟ وأين لا تزال تبرز الروح الطبقيّة؟

ماذا نستنتج حول هذه الكبرياء الطبقيّة؟

أكيد أنّ حالات اللامساواة الواقعيّة ستبقى موجودة. ولكن، على الأقلّ، يجب العمل على ملء المسافات، ليس من قبيل الروح الأبويّة الموجودة لدى أجيال من المسيحيين الحسنيّ النية ولكن القصيري النظر، (إذ إنّ في ذلك راحة ضمير للبعض وكثيراً من الخجل للبعض الآخر)، بل من قبيل الأخوة، أي الحبّ الأخويّ الذي هو أساس العلاقة الحقيقيّة بين جميع البشر، أبناء الأب الواحد.

هناك، بالفعل، نوع من العقيدة الأساسيّة غير المذكورة صراحة في قانون الإيمان، ولكنّها في خلفيّة العديد من بنود الإيمان (كالخلق، التجسّد، الفداء...) وهذه العقيدة هي المساواة الجذريّة بين جميع البشر أمام الله، مساواة في الكرامة البشريّة بين جميع الذين خلّقوا على صورة الله وخلصوا بدم المسيح. هذه الكرامة هي ما يجب الاعتراف به واحترامه في الجميع لأنّ الجميع مدعوّون إلى المصير الواحد.

"فأنتم كلّكم أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع، لأنكم تعمّدتم جميعاً في المسيح فلبستم المسيح، ولا فرق الآن بين يهوديّ وغير يهوديّ، بين عبدٍ وحرٍّ، بين رجلٍ وامرأة، فأنتم كلّكم واحد في المسيح يسوع." (غلاطية ٣، ٢٦-٢٨)

رابعاً: كبرياء "الأنا"

كبرياء "الأنا" لها ثلاثة وجوه:

أ - حبّ السلطة أو الرئاسة أو القيادة

نجد هذا الوجه في بعض أنواع من التربية التي تمجد ما لدى بعض الأشخاص من دعوة إلى الرئاسة أو الزعامة، أشخاص قدّرهم أن يكونوا "خلاصاً من نور". هناك أشخاص وُلدوا للقيادة وأشخاص للطاعة، أقدارُ سادة وأقدارُ عبيد.

ليس المقصود إدانة تحملِ المسؤوليات. فقير القلب لا يتراجع أمام القرار، وهو يعرف الجرم والحزم، ولكنّه لا يفرض نفسه أو رأيه دون أن يُصغي إلى الآخرين. وهو يقبل بأن يعترف بالأفكار الجيدة لدى الغير. وليس لديه رغبة في التسلّط أو في سحق الآخرين.

(ب) - حبّ الشهرة

أن تحبّ بناءً صورتك، أن تحبّ نحتَ تماثيلك الخاصّ، إنّها لتجربةً يمكن أن تطبع حياةً بكاملها. والخطر يكمن في أن نبقى أسرى هذه التجربة فنفقد بالتالي حقيقتنا وأصالتنا. حبّ الشهرة هذا يظهر بثلاث صور:

- رفض الإنسان الاعتراف بحدوده وعيوبه وضعفه، وإخفائها بعناية، ومحاولة تبرير نفسه. كلّ شيء ما عدا الحطّ من قيمته وفضح نفسه، في حين أنّ الاعتراف بالخطأ فضيلة والإقرار بالغلط يرفع من قيمة الإنسان.
- رغبة الإنسان في أن يكون في الصفّ الأماميّ، وعدم قبول المرء بالانتماء إلى مجموعة أو فريق أو فرقة إلاّ إذا كان رئيسها، وما من سبيل إلى القبول بالوقوف خلف الآخرين أو البقاء في الظلّ أو في الخفاء.
- أن يتجنّب الإنسان التعرّض للكسوف والفشل، وأن ينتهي به الأمر إلى الدخول في دوامة، والانخراط في سباق مُضنّ نحو الموضة والدارج، سواء كان ذلك في اللباس أو التسلية أو نمط الحياة...

إنّ فقير القلب ليس عبداً لصورةٍ يريد الظهور بها أو لهيبةٍ أو نفوذٍ يريد أن يرفع رايتهما. "مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ عَظِيمًا فَيَكُنْ لَكُمْ خَادِمًا. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الْأَوَّلَ فَيَكُنْ لَكُمْ عَبْدًا" (متى ٢٠، ٢٥)

(ج) - حبّ الظهور

وفي أساسه، ربّما، الادّعاء أكثر من الكبرياء. يظنّ حبّ الظهور بالأشكال التالية: حبّ التألّق، الرغبة في إثارة الإعجاب أو الحسد بأيّ ثمن، نرّ الرماد في العيون. فالمهمّ والجوهريّ ليس ما أنت بل كيف تظنّ. وهذا يقود إلى الاهتمام بما ليس حقيقياً، بما هو مزوّر، بما يُبهر العين... ما يهمّ ليس ما تكون بل الصورة التي تعطيها عن ذاتك.

ولكن، في الحقيقة، ما هو الأمر المهمّ؟ المهمّ طبعًا ليس الصورة التي نَظَهَرَ فيها للآخرين بل ما لدى الله من صورة عنّا.

عسى أن نُحَسِبَ، في عيني الربّ، في عداد الفقراء بحسب قلبه!

أسئلة

١. بعد هذا التفكير، أيّ شكلٍ من أشكال الكبرياء نقرّر التخلّي عنه؟
٢. هل نحن واعون لحقيقة مواقفنا؟ هل نقوم من وقت إلى آخر بعملية فحص ضمير؟

* * *

الفصل الخامس

حقّ الملكية واستعمال الممتلكات

يحبّ الأب "غان" (Ganne) أن يروي غالبًا هذه القصة. كان يدرس الإنجيل مع مجموعة مهندسين كاثوليك من وزارة الثقافة والاتصال (MCC). وبالطبع، توقّفوا عند المسائل المتعلقة بالفقر. فقال واحدٌ من المهندسين للأب غان: "فَهْمْتُ، الفقر ضروريّ بصورة مطلقة، فماذا عليّ أن أفعل؟" فأجابه الأب غان: "إِبْحَثْ وستجد!" فبحث المهندس ووجد عددًا من الأشياء. كان له بيانو جميل، فباعه ووزّع ثمنه على الفقراء. وكذلك فعل بمكتبه الأنيق المصنوع من خشب السنديان، فاستبدله بطاولة من الخشب الأبيض العاديّ. وتخلّص من سيّارته الفخمة واشترى مكانها سيّارة صغيرة. ولما أتى الأب غان لزيارته ودخل بيته، علّت وجهه تكشيرةً رهيبة. "كنتُ أحبّ أن آتي إلى منزلك لأعزف على البيانو. كانت سيّارتك الكبيرة الفخمة تؤدّي خدمات عديدة للأصدقاء والجيران. لقد انتهى كلّ ذلك. أمّا طاولتك الخشبيّة البيضاء، فبصراحة: ليست جميلة. فقال المهندس: " قلت لي أن أبحث، وهذا ما وجدته." فقال له الأب: " لقد وجدت كلّ شيء بطريقة خاطئة". فعاد المهندس يسأل: "ولكن، ماذا عليّ أن أفعل؟" فأجابه الأب: إِبْحَثْ تجد!" فعاد إلى البحث وانتهى بأن وجد أنّه يسكن في بنايته منذ عشرين سنة، ولكنّه خلال هذه المدّة لم يفكّر مرّة في دعوة البوّاب وعائلته لشرب فنجان من القهوة. وأنّه لم يرَ بيوت التنك التي لا تبعد أكثر من مئات الأمتار عن بيته. وأنّه مقصّر في موضوع العلاقات الأخويّة... فقال له الأب غان: "برافو. كنّ أكيدًا أنّه لا شيء أسوأ من غنيّ ليس لديه مال. فأن يكون لديك روحُ غنيّ وينقصك المال، فهذا أمرٌ فظيع! فالبوّاب لا يزعجه البيانو. والمهمّ أن يجد الجميع لديك راحتهم. إذن، إعمل على أن يكون لديك منزل يجد فيه جميع الناس الراحة والهناء".

الأب فارّيون (رسالة يسوع)

أولاً - الله الخالق والسيد

ثانياً - حق الملكية

آ - تذكير تاريخي

ب - حق الملكية له وجهان

١. حق الملكية هو حق طبيعي

٢. ولكن الأولوية لمبدأ "الملكية في خدمة الجميع"

ج - دور الدولة

ثالثاً - الواجبات المرتبطة بالملكية: استعمال الممتلكات

آ - الاستعمالات المختلفة للممتلكات

١. أن يحتفظ المرء بها لنفسه

٢. أن يتقاسمها مع الغير

٣. أن يجددها

ب - موضوع الإنماء الاقتصادي

ج - الحالة الخاصة بوسائل الإنتاج

رابعاً - حدود حق الملكية

آ - آليات الضبط والتنظيم

ب - حماية البيئة

ج - ضبط التطور

أولاً - الله الخالق والسيد

الله هو الخالق وهو سيد كل شيء. وضمن هذا المنظور الوحيد تتدرج مهمة إدارة الخليقة التي أوجدها الله للإنسان.

يُذَكِّرنا نصّ سفر التكوين بوضوح بالحقيقة التالية: كل ما لدينا هو عطية الله. فالله، في الأساس هو "المالك" الوحيد. ونحن نعرف العبارة المألوفة: "الملك لله".

منذ خلق العالم، أوكل الله للإنسان الأرض كلها باستثناء شجرة معرفة الخير والشر. وفي اليوم السادس الذي خلق الله فيه الإنسان، كشف لنا سفر التكوين وصية الله: "فَخَلَقَ اللهُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ، عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ، ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ. وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: " اِنْمُوا وَكَثُرُوا وَأَمْلَأُوا الْأَرْضَ وَأَخْضِعُوهَا وَتَسَلَّطُوا عَلَى أَسْمَاكِ الْبَحْرِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ وَكُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ" ... (تكوين ١، ٢٧-٣١).

الخليقة إذًا هي عطية الله العظيمة، وروعها تكمن في أنه تعالى أرادنا على صورته ومنحنا حرية الفكر والاختيار (الجامعة ١٦، ٢٤ إلى ١٧، ١٤).

الله حاضر على مدى العهد القديم وهو السيد في علاقاته مع البشر: إبراهيم وإسحق (تكوين ٢٢، ١)، موسى، إلخ... وهذا ما تنشده المزامير أيضًا: " لِلرَّبِّ الْأَرْضُ وَكُلُّ مَا فِيهَا، الدُّنْيَا وَسَاكِنُوهَا، لِأَنَّهُ عَلَى الْبِحَارِ أَسَّسَهَا وَعَلَى الْأَنْهَارِ أَرْسَاهَا. " (مزمو ٢٤، ١)

نجد الأمر نفسه في العهد الجديد عند القديس بولس الذي يقول: " بنعمة الله أنا ما أنا. وبخاصة في رسالته الأولى إلى أهل كورنثس حيث يقول: " فَمَنْ الَّذِي يُمَيِّزُكَ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ لَكَ لَمْ تَنْلَهُ؟ فَإِنْ كُنْتَ قَدْ نَلْتَهُ، فَلِمَ تَتَخَرَّضُ كَأَنَّكَ لَمْ تَنْلَهُ؟ (١ كورنثس ٤، ٧)

الأولاد أيضًا هم عطايا من الله. في الاحتفال برتبة المعمودية، يشكر الوالدان الله لأنه أعطاهما ولدًا، وهما يأتیان بدورهما ليعيداه إلى خالقه وليطلبوا قبوله في الكنيسة. وإذ يصبح المعمد عضوًا في الكنيسة لا يعود ملكاً لنفسه ولا لوالديه بل للذي مات وقام من أجلنا.

وهكذا هو حال الرّاهب الذي يختار الفقر ويسلم الله كل ما يملك من خلال نذوره الرهبانية.

لنستمع مجددًا إلى الرسول بولس: "أما تعلمون أنّ أجسادكم هي هيكلُ الرُّوحِ القُدُسِ، وهو فيكم قد نلتموه من الله، وأنكم لستم لأنفسكم؟" (١ كورنثس ٦، ١٩)

غير أنّ الإنسان المخلوق على صورة الله مسؤول تجاه العالم. فهو، وبشكل ملموس، مؤتمن على العالم ومكلف بإدارته. وبهذه الصفة له الأهلية لأن يقول بـ "حق الملكية".

ثانياً - حق الملكية

الموضوع الذي يطرحه حق الملكية موضوع مزدوج: موضوع علاقة الإنسان بالخيرات المادية، وموضوع التضامن بين البشر. المسألة، بالنسبة إلى الإنسان المسيحي، هي معرفة ما إذا كانت الملكية أمراً مشروعاً (راجع مثل "الشاب الغني": متى ١٩، ١٦-٣٠).

أ) - تذكير تاريخي

لا شك بأن تذكيراً تاريخياً موجزاً لا يخلو من الفائدة:

يعرف العهد القديم حق الملكية. فما إن خلق الله العالم حتى ظهر مفهوم الملكية بسرعة وبشكل صريح.

تدعونا الوصايا العشر إلى أن نعيش على الأرض في سعادة هي هبة من الله، وأن لا نشتهي بيت قريتنا ولا أي شيء من مقتنياته (تنثية الاشتراع ٥، ١٦-٢١).

كما تدعونا إلى احترام الآخر: "لا تتقل حُدودَ قَرِيبِكَ الَّتِي حَدَدَهَا الْأَوْلُونَ فِي مِيراثِكَ الَّذِي تَرِثُهُ فِي الْأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهَكَ إِيَّاهَا لِتَرِثَهَا" (تنثية الاشتراع ١٩، ١٤).

لقد ظهرت الملكية تدريجياً مع تطوّر العالم وتنظيم الجماعات البشرية (نهاية البداوة، الانتقال من حالة الترحّل إلى حالة الإقامة).

فبعد أن كان لِحَقِّ الملكية عند الإغريق طابع جماعي، اتخذ هذا الحق منذ الحقبة الرومانية منحىً فردياً، ثم تطوّر تدريجياً لكي يستقرّ كحقّ مطلق ثابت، إذ نصّت "شرعة حقوق الإنسان والمواطن" الصادرة عام ١٧٨٩، في المادة ١٧: "الملكية حقّ مقدّس لا يُغتصب ولا يمكن أن يُحرّم أحد منه إلا إذا اقتضت ذلك الضرورة العامة المعترف بها شرعياً...".

وفي فرنسا، تكرّس هذا المفهوم في القانون المدني المعروف بقانون نابوليون، في المادة ٥٤٤ منه التي نصّت على ما يلي: "الملكية هي حقّ التمتع والتصرف بالأشياء بصورة مطلقة، شرط أن لا تُستعمل استعمالاً تمنعه القوانين والأنظمة".

في القرن التاسع عشر عرّف حقّ الملكية عودةً إلى المقاربة الجماعية: التأميم، نظام إجارة الأراضي الزراعية، إنشاء حقوق الانتقال، استحداث نظام الشركات المغفلة التي تفرّق بين حقّ الملكية وإدارة الملكية.

ب) - وجهها حقّ الملكية

بالنتيجة، حق الملكية له وجهان أو مظهران:

١. حق الملكية هو حق طبيعي

أساس حق الملكية هو طبيعة الإنسان. وقد حدّد القديس توما الأكويني شرعيّة هذا الحقّ الطبيعيّ معرفًا إيّاه بأنّه قدرة الإنسان على إدارة أمواله والتصرّف بها. إنّه حقّ مشروع بل ضروريّ للإنسان وللمجتمع في آن واحد، وذلك لثلاثة أسباب:

- المرء يهتمّ بملكه الخاص أكثر ممّا يهتمّ بالملك العام أو بالملك المشترك (تدلّ التجربة على أن الإنسان يترك عادةً للآخرين أمر الاهتمام بالملك العام أو المشترك)
- الأمور تسير بشكل أفضل عندما يكون كلّ واحد مسؤولاً عن نطاقه الخاص. فإذا اهتمّ جميع الناس بجميع الأشياء يصبح الخطر كبيراً في أن تعمّ الفوضى.
- حق الملكية أكثر ملاءمة للسلام بين البشر لأنّه يتيح لكلّ إنسان الاكتفاء بنصيبه. أمّا في حالة الملك العام أو الملك المشترك فغالباً ما تبرز الاحتكاكات.

(الخلاصة اللاهوتيّة، الجزء الثاني، ٢/٦٦)

ولكن، إذا كانت الملكية والاستعمال الفردي للأشياء شرعيّين، فإنّ هذا الاستعمال لا يمكن أن يُعهم إلاّ إذا كان لمصلحة الجميع. وهذا هو أساس فكرة الإدارة: الإنسان هو القيم أو المؤتمن على إدارة ما يملكه.

٢. الأولويّة لمبدأ "الملكية في خدمة الجميع"

الملكيّة الخاصّة هي حقّ طبيعيّ للأشخاص، ولكنّها تشكّل "حقاً ثانويّاً" بالنسبة إلى المبدأ المطلق: "الملكيّة في خدمة الجميع". هكذا يؤكّد القديس توما الأكويني: "عند الضرورة القصوى، كلّ شيء مشترك، أي كلّ شيء للمشاركة". هذه الإرشادات تعكس موقف الكنيسة، وبخاصة في دستور "فرح ورجاء" (Gaudium et spes)، الرقم ٦٩، الفقرة ١:

"وضّع الله الأرض وما فيها باستعمال البشر والشعوب بحيث تنتقل خيرات الخليقة بين أيدي الجميع وفقاً لقاعدة العدل الذي لا ينفصل عن المحبّة. وأياً كانت أشكال الملكيّة التي تتكيّف مع المؤسّسات الشرعيّة بحسب الظروف المتنوّعة والمتغيّرة، فيجب دائماً أن نأخذ بالاعتبار الغاية العامة للخيرات.

ينجم عن هذه الغاية أنّه يجب على الإنسان أن يُثمّر الخيرات التي حصل عليها من جهة، وأن يأخذ بالاعتبار، من جهة أخرى، أنّ استعمال الخيرات له حدود. وبهذا المعنى أكّدت الرسالة العامة (Quadragesimo Anno) أنّه "يجب عدم الخلط بين حقّ الملكيّة واستعمال هذا الحقّ. فهناك موجبٌ على المالكين بعدم استعمال خيراتهم إلاّ استعمالاً شريعياً".

(ج) - دور الدولة

تبقى مسألة دور الدولة.

أدت تجاوزات "الحكومية" ("Etatisme"، أي الأنظمة السياسية التي تتدخل فيها الحكومات مباشرة في القطاع الاقتصادي، مثل ملكيات الأنظمة القديمة والشيوعية) إلى ردات فعل قوامها الرغبة في الدفاع عن النفس وتمجيد حقوق الشخص.

"إنَّ عالمًا تكون فيه الآلية الاجتماعية على درجة من الكمال بحيث يكون لكل حاجة من حاجات الإنسان مؤسسة تنتزع منه، في كل لحظة، الخيار بين الخير والشر، مثل هذا العالم يؤدي إلى نوع من "الآلية" اللارادية، إلى السهولة، إلى الموت" (أ. مونييه، من الملكية الرأسمالية إلى الملكية الإنسانية، ص: ٧٠ - E. Mounier, De la propriété capitaliste à la propriété humaine, p.70)

وهكذا ظهرت الملكية الخاصة كوسيلة طبيعية في يد الإنسان لممارسة سيادته على الخيرات كما أرادها الله. هذا لا يستبعد إمكانية أن تكون الملكية العامة شرعية، خصوصًا في الحالات التي تكون فيها الملكية الخاصة لبعض الأموال أو في بعض القطاعات، ضارة أو قليلة الفعالية. إنَّ العقيدة الكاثوليكية تقرّ بذلك: " هناك أنواع من الأموال يمكن الدفاع بحق عن ضرورة إبقائها في نطاق الملكية العامة، خصوصًا عندما ينجم عنها سلطة اقتصادية معينة بحيث لا يمكن تركها في أيدي الأفراد، دون خطر على الخير العام" (بيوس الحادي عشر، الرسالة العامة (Quadragesimo Anno).

ثالثًا - الواجبات المرتبطة بالملكية: استعمال الممتلكات

المسألة الأساسية هي في الردّ على التناقض الظاهر بين التمتع الشخصي بالمال (المعترف بشرعيته) وغايته العامة (المعترف بضرورتها). على المرء، من خلال إدارة هذا التناقض ومن خلال اختياره لكيفية استعمال أمواله، أن يعبر، كمسيحي، عن خياره الحرّ وقدرته على اتخاذ المبادرات.

أ - الاستعمالات المختلفة للممتلكات

تقوم مسؤولية المالك تجاه ملكية تأتيه من الله على أن يعي دوره كمؤتمن عليها. وأن عليه واجب استعمالها استعمالاً حسناً محافظاً باستمرارٍ على احترام القريب والتضامن معه. وهذا يفترض من قبله تجرّدًا داخليًا فلا يتعلّق بالأموال المقتناة ولا يسقط نفسه على الشيء المملوك. إنَّ استعمال الأموال له أوجه متعدّدة:

- أن يحتفظ المرء بها لنفسه
- أن يتقاسمها مع الغير
- أن يُجِدِّدها

ومن الواضح أنّ هذه الاستعمالات المختلفة لا ينفي بعضها البعض.

١. الاحتفاظ بها لنفسه:

إنّ مصلحة العائلة لها الأولوية. هذا ما أعرب عنه البابا بيوس الثاني عشر في رسالته التي أشار إليها الدستور العقائدي "أمّ ومعلمة"، الرقم ٤٥: "إنّ الملكية الخاصة للخيرات المادية يجب اعتبارها كوسيلة كفيّلة بأن تؤمّن لربّ العائلة الحرية الوحيدة التي يحتاج إليها للقيام بالواجبات التي أوكّلها إليه الخالق من أجل خير العائلة الطبيعيّ والروحيّ والدينيّ". إنّ حق توريث الأولاد مستمدّ من هذا الاعتبار، وإن لم يكن نتيجة ضروريّة أو آليّة له. عند النظر في ما يجب لتأمين حاجات العائلة، يتحدّد خيار الإنسان المسيحيّ في ضوء التمييز بين الضروريّ والفائض. سنفصّل لاحقاً هذه الفكرة في فصل خاصّ.

٢. تقاسمها مع الغير:

إنّ مبدأ استعمال الخيرات استعمالاً مشتركاً يقود المالك إلى أن يضع الأموال التي لا يستعملها في تصرف الذين هم بحاجة إليها. هذا "الوضع بالتصرف" يتعلّق بجميع الخيرات الموجودة: المال، الوقت، العاطفة... ويمكن أن يتّخذ وجوهاً متعدّدة: هبات، قروض، إعفاء من الديون... ويمكنه أيضاً أن يتّخذ شكل "استثمار" أو "توظيف" مستقبلي عن طريق توظيف الثروات القائمة في خدمة قضية أو "مشروع" بهدف تثير هذه الثروات.

٣. تجديدها:

هذا هو السؤال الجوهريّ الذي يطرحه مبدأ الغاية العامّة للخيرات الذي يستند إلى الكلمات الواردة في سفر التكوين: "إنموا وأكثرُوا وأملأوا الأرض وأخضعوها". وقد جدّد الإنجيل هذا المبدأ في مثل الوزنات، وكذلك في الآية الواردة في إنجيل مرقس: "مَنْ كَانَ لَهُ شَيْءٌ، يُعْطَى. وَمَنْ لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ، يُنْتزَعُ مِنْهُ حَتَّى الَّذِي لَهُ" (مرقس ٤، ٢٥).

لنقرأ مجدّداً مثل الوزنات: مَنْ أُعْطِيَ خَمْسَ وَزْنَاتٍ وَاسْتثمرها نال المكافأة الأعظم، في حين أنّ صاحب الوزنة الواحدة الذي خاف وطمرها في التراب عوقب عقاباً شديداً.

(ب) - موضوع الإنماء الاقتصادي

التفكير حول الإنماء هو في صميم هذه الإشكالية:

■ هل يجب التشديد على تقاسم الثروات بتحميل العبء للبلدان الغنية، إراحة للضمير، بصرف النظر عن النتائج الممكنة تحقيقها فعلياً ودون التأكد من حلّ المشاكل حلاً جذرياً؟

■ أم أنّ الأكثر فعالية وكرامة هو مساعدة البلدان الفقيرة بسياساتٍ تعتمد على التنشئة ونقل المعرفة والخبرة والنشاط، علماً بأنّ الطريق طويل ونتائجه غير مضمونة؟

الجواب، بلا شكّ، ليس ثنائياً: هذا أو ذلك. إذ يجب اتباع التوجّهين معاً. إلاّ أنّه من الواضح أنّ مستقبل البلدان الفقيرة يمرّ بتوعيتها وبتحميلها المزيد من المسؤولية: "ساعد نفسك تساعدك السماء!" أو أيضاً: "إذا كان أخوك جائعاً، فالأفضل من أن تعطيه سمكة هو أن تعلمه الصيد". إنّ مسؤولية البلدان الغنية هنا ليست في أن تعطي فحسب بل في أن تتأكد من أنّ ما تعطيه سيُستثمر ويُنمّر.

في هذه الحال يأخذ المعنى الإنجيلي لكلمتي الغنى والفقير إضاءة جديدة، إذ يصبح الغنيّ من يكثر ويخزن ويظمر وزنته تحت الأرض، ويصبح الفقير من يستثمر نصيبه ويجازف بتثميّره.

وبذلك، لا يعود التفكير يدور حول ما يملكه المرء (Avoir) بل حول ما هو (Etre). يجب أن يكون المرء فقيراً، ولكن المقصود ليس ما له بل ما هو. "عندما يهاجم البابا مجتمع الاستهلاك فهو على حقّ: لا باسم ما للإنسان بل باسم ما هو" (Xavier Emmanuelli).

ج) - الحالة الخاصة بوسائل الانتاج

مسألة كبرى جرى درسها في جميع الرسائل العامة الاجتماعية تنتج عن هذا المفهوم للغنى والفقير: إنّها مسألة ملكية وسائل الانتاج، الصناعية منها والزراعية. وبالفعل، إنّ الغنى الذي يدينه الإنجيل يقترب من الاكتناز والتخزين، مهما كان حجمه ونوعه: أهراء مملوءة، استهلاك شخصي، رفاهية ورخاء، غياب المجازفة أو الخطر... في حين أنّ الاستعمال الحسن للخيرات يقترب من الاستثمار، وانتقال المال، والإنماء، والمجازفة بتثمير العالم الذي أوكله الله للإنسان.

لقد كانت الكنيسة دائماً على قدر كبير من الوضوح في هذا الشأن:

"إنّ حقّ الملكية الخاصة، حتى لوسائل الإنتاج، قائم في كل زمان، لأنّه جزء من الحقّ الطبيعيّ القائل بأنّ الفرد سابقٌ للجماعة التي ترتبط به كما بغايتها. فضلاً عن ذلك، إنّ من غير المجدي الإقرار للفرد بحرية العمل في المجال الاقتصاديّ دون الإقرار أيضاً بحرية اختيار الوسائل اللازمة لممارسة هذا الحقّ، وحرية استعمالها. فالخبرة والتاريخ يشهدان لذلك: فحيث لم تُقرّ

السلطة السياسيّة للأفراد بحق تملك وسائل الإنتاج، تبقى الحريّات الأساسيّة معطّلة أو منتهكة. فمن البديهيّ إذاً أن تجد لها في هذا الحق ضماناً وحافزاً. " (أمّ ومعلّمة، الرقم ٣٨٥)

"إنّ الخيرات المنتجة، الماديّة وغير الماديّة، كالأراضي أو المعامل، أو المؤهّلات أو الفنون، تقتضي أن يعتني بها أصحابها حتى يفيد إنتاجها العدد الأكبر من الناس. ومن يحوزون خيراتٍ للاستعمال والاستهلاك عليهم أن يستعملوها بقناعة، حافظين النصيب الأفضل للضيف والمريض وللفقير. " (التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، الرقم ٢٤٠٥)

الصعوبة تنجم عن التناقض الظاهر بين التمتع الخاص بخيرٍ تعتبره الكنيسة حقّاً لكلّ إنسان وتعتبر استعماله حقّاً للجميع. وهذا يصحّ خصوصاً في الخيرات الاقتصاديّة: مشروع، إرث، أرض زراعيّة، التي يجب على مالكيها أن يثمرها.

والجواب، بلا شكّ، هو في استعمال الخيرات استعمالاً عاقلاً:

- من جهة، بأن يبقى حاضرًا في الذهن خير الجماعة: فلا معنى للمشروع أو المؤسسة إلا إذا أنتجا خيراتٍ جديدة، وليس لهما أيّ معنى إذا كانا يعيشان على نفقة الجماعة أو إذا كانا لا يعيشان إلا بوسائل غير شريفة.
- ومن جهة أخرى، بأن لا تغيب عن النظر غاية الاقتصاد وهي تلبية حاجات البشر أجمعين. وهكذا، كان البابا يوحنا بولس الثاني في غاية الوضوح عندما أكّد في رسالته (Laborem Exercens) "أنّ الملكيّة تُكتسب قبل كلّ شيء بالعمل ولخدمة العمل. وهذا يتعلّق بصورة خاصّة بوسائل الإنتاج".

رابعاً - حدود حقّ الملكيّة

أ- آليات الضبط والتنظيم

ليس حقّ الملكيّة حقّاً مطلقاً، فالقانون أو السوق يخلقان آليات ضبطه وتنظيمه.

وهكذا عرّف العالم الغربيّ مع الوقت إلغاء الرقّ، تنظيم التجارة، بروز الأسواق الماليّة وتنظيمها، ظهور القواعد الماليّة التي تحكم ملكيّة رأس المال ووسائل الإنتاج، بروز القوانين المضادّة للاحتكار، قواعد المنافسة، تجاوز السلطة، إلخ ...

نحيل مجدّداً إلى النصّ الذي أوردناه أعلاه من "التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة" لما فيه من دعوة إلى الالتزام بالتطيف: "إنّ الخيرات المنتجة، الماديّة وغير الماديّة، كالأراضي أو المعامل، أو المؤهّلات أو الفنون، تقتضي أن يعتني بها أصحابها حتى يفيد إنتاجها العدد الأكبر من

الناس. ومن يحوزون خيراتٍ للاستعمال والاستهلاك عليهم أن يستعملوها بقناعة، حافظين النصيب الأفضل للضيف وللمريض وللفقير".

وتقول مرغريت هوبنو (Marguerite Hoppenot) الشيء نفسه تقريباً في شكل صلاة:

"عَلِّمْنَا يَا رَبَّ أَنْ كُلَّ سُلْطَةٍ وَكُلَّ مَلَكِيَّةٍ وَكُلَّ امْتِيَاذٍ، مَهْمَا كَانَتْ، تَحْمَلُ ثِقْلًا مُوَازِنًا مِنَ التَّطَلُّبِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ، وَلَيْسَ لَهَا مِنْ مَعْنَى سِوَى أَنْ تَكُونَ مِنْ أَجْلِ الْخِدْمَةِ".

(ب) - حماية البيئة

تطرح حماية البيئة اليوم، من وجهة النظر هذه، أسئلة رهيبه: هل لنا الحق في تسخير الطبيعة لتثمير رأس المال؟

"إنَّ استغلال الأرض لا يمكنه بعد اليوم إجلاء المسألة البيئية. واستغلال موارد العالم استغلالاً متوحِّشاً يرتدُّ بسهولة ضدَّ البشر. إنَّ النتائج الوخيمة للفتوحات التكنولوجية تهدد الأنظمة البيئية. ويجب علينا أن نستنبط معاً الطرق والوسائل الكفيلة بممارسة فضائل القوة والتلطيف الاجتماعي لكي نتظم باعتدال وحكمة الاستعمال الجماعي لخيرات الأرض" (التعليم المسيحي للبالغين).

احترام سلامة الخليقة: "تفرض الوصية السابعة احترام سلامة الخليقة [...] فالسيادة التي أولاها الخالق للإنسان على الكائنات الفاقدة الحياة وعلى الكائنات الحيّة ليست سيادة مطلقة؛ فمقياسها الاهتمام بحياة القريب، وضمان الأجيال القادمة، فهي تقتضي احتراماً دينياً لسلامة الخليقة" (التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، الرقم ٢٤١٥).

النصوص لا غموض فيها: الأرض إرث مشترك للبشرية. وبهذه الصفة، يتحمل الإنسان مسؤولية أساسية في شأن مصير الكون.

إنَّ الخيار الذي يتعين اتّخاذه يجب استيعاؤه من هذا الموجب، خصوصاً في الحالات التالية:

- الاختيار بين الحماية المشروعة للبيئة من جهة والتطور الاقتصادي من جهة ثانية كلما كان إنشاء صناعة جديدة يؤدي إلى زعزعة النظام البيئي أو إلى المسّ بالتوازن البيئي القائم أو إلى تهجير السكان باسم التطور.
- خطر التسبب بضرر بيئي كبير نتيجة سعي محمود لتوسيع مناطق زراعية في إطار مكافحة الجوع (مثلاً: في أندونيسيا، أو في غابات الأمازون).

(ج) - ضبط التطور

وأخيراً، إنّ الأخطر من ذلك كلّهُ هو الجدل الأخلاقي الأساسي القائم حول استتساخ الطبيعة دون التأكّد من ضبط النتائج (ممارسة الاستتساخ والتلاعب الجينيّ بدءاً بالنعجة "دوللي"): هل يمكن وهل يجب، باسم التطوّر والتقدّم واحترام الملكيةّ الفرديّة، بما فيها الملكيةّ الفكرية، ترك الأمور على غاربها أو تشجيع مثل هذا التطوّر؟

بديهيّ أنّ الجواب على هذه الأسئلة (وبخاصة الأخيرة منها) ليس سهلاً. ولكنّ ذلك لا يبرّر تجاهلها. وحده التفكير بضمير مستنير حول حقوق الإنسان وواجباته يمكن أن يساعد على التقدّم نحو القرارات الواجب اتّخاذها.

أسئلة:

١. هل تعطي الملكيةّ الإنسان جميع الحقوق؟ أم أنّ للجماعة الحقّ في تحديدها؟
٢. إذا كان الفقر يستلزم التخلّي عن الممتلكات، فكيف التوفيق بين اقتناء الخيرات الماديّة وموقف الفقر؟ وماذا بشأن رغبة الإنسان في التملّك المتزايد؟
٣. هل نحن مستعدّون اليوم لأن نتخلّى عن بعض ما نملكه؟ ماذا؟
٤. يظنّ الإنسان أنّه يملك في حين أنّه ليس سوى القيم على ما يملكه. ما معنى ذلك لي شخصياً ولعائليّ ولحياتي المهنية؟

الفصل السادس

الضروري والفائض

صلاة:

" وجلس يسوع فباله الخزانة ينظر كيف يلقى الجمع في الخزانة نقوداً من نحاس. فألقى كثيراً من الأغنياء شيئاً كثيراً. وجاءت أرملة فقيرة فألقت عشرين، أي فلساً. فدعا تلاميذه وقال لهم: « الحق أقول لكم إن هذه الأرملة الفقيرة ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا في الخزانة، لأنهم كلهم ألقوا من الفائض عن حاجاتهم، وأمّا هي فإنها من حاجتها ألقت جميع ما تملك، كل رزقها». (مرقس ١٢، ٤١-٤٤)

درجت الكنيسة تقليدياً، مستندة إلى موقف يسوع من الأرملة، على أن تعتمد موقفاً جذرياً من موضوع استعمال الفائض: الفائض لا يمكن الاحتفاظ به.

يقول القديس أوغستينس: "الفائض لدى الغني هو الضروري للفقير. فامتلاك الفائض إذاً هو نوع من امتلاك مال الغير" (القديس أوغستينوس، تعليق على المزمور ١٤٧، الآية ١٢)

وفي معرض التعليق على متى ١١، ٣١، يقول القديس توما الأكويني: "لقد زاد العهد الجديد من مقدار العشر الذي خصصه العهد القديم لكي يجعله الأغنياء في خدمة الفقراء، بمعنى أن الرب يأمرنا بأن يُعطى هؤلاء لا العشر فحسب، بل الفائض كله: "بيعوا أموالكم وتصدقوا بها..." (لوقا ١٢، ٣٢)"

أمّا البابا لاون الثالث عشر فيقول: "ما إن نؤمن لأنفسنا الضروري واللائق، يصبح من واجبنا تخصيص الفائض لحاجة الفقراء (لاون الثالث عشر، الشؤون الحديثة Rerum Novarum)

"إن فائض البلدان الغنية يجب أن يوضع في خدمة البلدان الفقيرة. والقاعدة التي كانت تطبق فيما مضى لصالح الأقارب يجب تطبيقها اليوم لصالح جميع المحتاجين في العالم." (بولس السادس، ترقّي الشعوب Popularum Progressio, No 49)

وهكذا، فالعطاء لا يكفي. إذ يجب أيضاً أن يكون العطاء نابغاً من التفكير. فنحن لسنا مدعوين "للتصدق" ببعض عطاءات لا نتائج لها لأنها بمعنى ما غير مؤلمة، بل لأن نتخلّى عن كل ما يفيدنا حقاً للحياة.

مثل هذه النصيحة تضعنا أمام خيار مزدوج:

- الحدود بين الضروري وغير الضروري.
- معنى الفائض ومداه.

وهي تُجبرنا على الإجابة عنهما بحيث نجمع في نوع من التكامل بين التقشّف الذي يحضّنا عليه الإنجيل وواجبنا بتثمين وزيادتنا من أجل تطوير العالم.

أولاً: كلّ ما ليس ضرورياً هل هو فائض؟

آ - الضروريّ

ب - تبيّن الضروريّ واجب عدالة

ج - ما يقع بعد هذا الحد الأدنى: هل هو الفائض؟

ثانياً: الفائض غير المفيد؟

ثالثاً: لكلّ شخص فائض وضروريّ

أولاً: كل ما ليس ضرورياً هل هو فائض؟

آ - الضروريّ

يمكن القول إنّ الضروريّ هو الحد الأدنى الحيويّ. فالإنسان بحاجة لكي يحيا إلى مستلزمات:

- ماديّة: الأكل، النوم، العناية
- إنسانية: الاعتراف به في كرامته الإنسانية
- عاطفيّة: أن يُحبّ وأن يُحبّ
- سياسيّة-اجتماعيّة: الفكر، الرأي، التنشئة، التنقّل.

هذه المستلزمات تشكّل الضروريّ.

ب - تبيّن الضروريّ واجب عدالة

إنّ تأمين حق العيش الكريم لكلّ إنسان هو واجب على كلّ مسيحيّ. فالجوع، والعنف، والحرب، والبطالة، وظروف حياة الأولاد والنساء في بعض البلدان، والمرض، والأميّة، والحدّ من الحرّيّة الدينيّة... هي جميعاً أوضاع غير مقبولة، وعلى المسيحيّ محاربتها.

الطريق إلى ذلك طويل ومزروع بالعقبات والفخاخ. ولكنّه يبقى واجباً. فالمسيحيّ لا يمكنه أن يرضى برؤية أقاربه الأقربين أو الأبعدين يعيشون في ظروف حياتيّة مزريّة. وبهذه الصفة، كما في كل ما يمسّ بالأوضاع الإنسانية، هذا الواجب متطلّب ومزعج للإنسان:

▪ تجاه نفسه، لأنه يقوده إلى أن يطرح أسئلة حول طريقة عيشه والتحرّكات والتصرّفات التي يجب اعتمادها من أجل مساعدة الذين لا يتوقّر لهم الحد الأدنى للعيش الكريم.

▪ بشأن العالم الذي يحيط بنا والذي يتعيّن علينا أن ننظر إليه وأن نفهمه - فاللامبالاة وسياسة النعمة ليستا مواقف مسيحية مسؤولة - وأحياناً أن نفضحه ونشهر به ونحاربه.

وهكذا فإنّ هذا الواجب يمكن أن يقود، في الحالات التي تكون فيها الحقوق الأساسية للأشخاص منتهكة، إلى القبول بالتدخل في شؤون الآخرين. إنّ الشعوب المأخوذة كرهائن للعنف أو الجوع لأسباب من الخصومات والعداوات بين فئات متعارضة هو مثلٌ له من هذا المنظور دلالة كبيرة. فحتى ولو كانت وسائل التدخل في هذه الحالات صعبة التحديد وكانت حدود التدخل لا يمكن تجاهلها، فإنّه من غير المفهوم أن تبقى جماعة البشر بلا حركة ولا صوت تجاه مثل هذه الأوضاع.

(ج) - ما بعد هذا الحدّ الأدنى: هل هو الفائض؟

الصيغة التساؤلية ليست هروباً من الحقيقة. لكنّها تعكس ببساطة صعوبة تحديد هذه اللحظة أو بالأحرى هذا الوضع، تحديداً كمياً أو نوعياً، حيث كلّ ما هو مقتنى أو مستعمل يبطل أن يكون للاقتناء أو الاستعمال ليصبح زائداً عن الحاجة، أو حيث كلّ ما يزداد ليس له من فائدة سوى الاقتناء للاقتناء أو الاقتران للظهور، وبعبارة واحدة حيث الضروري يصبح فائضاً.

المسألة، في الأساس، مسألة منطقة "رمادية" تفصل بين ما يندرج صراحة في خانة الحدّ الأدنى الحيوي وما يمكن وصفه بالمستحبّ أو "المسلي" (بالمعنى الفلسفي للكلمة) ولكنّه غير ضروريّ وحتى زائد عن اللزوم. وكلّ شيء يتوقّف على موقع الحدود بين الإثنين. الجواب سهل، ظاهرياً فقط، لأنه ما من جواب بوجه عام، إذ على كلّ واحدٍ أن يعيّن حدوده الخاصة تبعاً لتاريخه الشخصي. فالجواب، في الحقيقة، يتطلّب تفكيراً دقيقاً.

إنّ الفائض ليس "نقطة الماء الصغيرة التي تجعل الوعاء المملأ يفيض" فحسب، ولا هذه المنطقة القصوى، الهامشية، الموجودة لدينا جميعاً، والتي لا نعيدها أيّة أهمية لأنّ زوالها لا يترك أثراً يُذكر في حياتنا: الشراة الصغيرة، الحلية الإضافية، زينة السيارة الجميلة. فالتخلّي عن ذلك له ثمن بالطبع، ولكنّ طريقة عيشنا لن تتخربط لهذا السبب، فبإمكاننا العيش على الأرجح بلا الحلية دون أن تتغيّر حياتنا.

إنّ تعيين الحدود التي تفصل بين الفائض والضروريّ يضعنا في قلب تفكيرٍ شبه وجوديّ يقوم على المعنى الواجب إعطاؤه لحياتنا. هذا ما أراد القديس جان بوسكو Jean Bosco

أن يقوله لنا: "جميع الخيرات والثروات هي عطية من الله. ولكنّه عندما أعطانا إيّاها، ترك لنا الحرية في أن نختار منها كلّ ما هو ضروريّ، ليس أكثر!" وعلينا أن نقوم بهذا الاختيار الحياتيّ.

ثانياً: الفائض غير المفيد؟

يقتضي النظر أيضاً في مفهوم الفائض.

"الفائض شيء ضروريّ جداً"، هذا ما يقوله فولتير Voltaire. ولكن، أبعد من اللعب على الكلام واستعمال المفارقات وحبّ الإثارة التي كانت تشكّل بعضاً من المواهب التي يميّز بها هذا المفكر الكبير، فقد نجد في هذه العبارة الطريفة فكرةً تستحقّ الاحتفاظ بها، وهي تتعلّق ببُعْد الزمان والمكان. فاهتماماً ما أو نفقةً أو مشروع معين يمكن أن تبدو، في لحظة من اللحظات، غير مفيدة بمعنى الحدّ الأدنى الحيويّ، ومع ذلك فقد يتبيّن بعد مدّة أنّها مصدرٌ تقدّم وتطوّر.

على الصعيد الفرديّ، يمكن أن يكون ذلك مثلاً أخذَ إجازة أو استراحة. قد لا يخطر على بال أحدٍ، اليوم، أن يعارض ذلك. ولكن، لم يكن الأمر دائماً هكذا، كما أنّه ليس الأمر مسلماً به في كافة أنحاء العالم.

على صعيد بلدٍ من البلدان أو على صعيد الكرة الأرضية، قد يكون الأمر إطلاق مشروع كبير أو مغامرة جماعية يُتوقّع منها، على مدى قصير أو طويل، مردودات هامةً تقنية أو تجارية أو صناعية قد يستفيد منها بشكل مباشر أو غير مباشر مجموع الشعب.

على هذا الصعيد، يشكّل غزو الفضاء مثلاً جيّداً: فقد وُفّر بصورة ملحوظة معلومات تكنولوجية وعلمية قيمة أسهمت في تسريع التطوّر في وسائل الاتصالات التقنية، ومع ذلك، وفي الوقت نفسه، لم يختفِ الجوع من العالم. فهل كان ينبغي، لهذا السبب، عدم إطلاق مثل هذا المشروع؟

من وجهة النظر الاقتصادية، إنّ كميّة إدراك الفائض تستحقّ النظر إليها بمزيد من الحذر.

مثلاً، وجود مداخل مرتفعة تفوق بكثير الحدّ الأدنى الحيويّ، هل يجب بديهياً إدانتها من وجهة نظر العدالة التي يدعونا إليها التفكير في مفهوم الفائض؟ ألا يتوقّف الجواب عن ذلك، إلى حدّ كبير، على كميّة استعمال هذه المداخل؟ قد يمكن اعتبارها في تحليل أولي، وعن حق، من قبيل الفائض، فبعض المداخل مبالغ فيها حقاً، ولكن، ماذا نقول إذا تبين أنّها، نتيجة المبالغ التي توفّرها والاستثمارات التي تستتبعها والحركة المالية التي تنجم عنها، تُوفّر وسيلةً فعالة لإنعاش النشاط الاقتصاديّ؟

يظهر لنا، عند هذا الحدّ، أنّ المهمّ، بلا شك، هو قدرتنا على أن ننظر إلى الأمور نظرة تتحلّى بالعدالة والتمييز.

فإغماض العيون، وعدم التساؤل حول بعض التصرفات، وإغفال التفكير المعمق حول ما لا يمكننا الاستغناء عنه لإعطاء معنى لحياتنا وحول ما يشكّل المحرّك لنشاطنا البشريّ، قد تتدرج كلّها في الخانة المعاكسة للمتطلّبات الإنجيليّة.

فليكنّ لنا من التمييز ما يمكّننا من أن ندرك أين يبدأ في حياتنا وفي عالمنا هذا الفائض الذي يختلط أحياناً مع عدم الفائدة أو مع التدمير أو يتعارض مع الخلق والإبداع. وليكن حاضراً في ذهننا:

- أنّه إذا كانت الحدود التي تفصل الفائض عن الضروريّ لا يمكن أن تكون هي نفسها بالنسبة إلى جميع الناس، فإنّ كل واحد، أينما كان، مدعوّ إلى أن يبحث عن حدوده الخاصّة، وأن يستخلص منها النتائج لحياته.
 - أنّ كميّة إدراك الفائض تتطوّر مع الوقت. وتطوّر الجنس البشريّ، بوجه خاص، يدكّرنا بأنّ الحد الأدنى الحيويّ اليوم ليس نفسه في الأمس، ولن يكون نفسه بالتأكيد غداً.
 - أنّه من الجوهريّ التفكير في هذا الموضوع مع إبقاء غايات وجود الثروات واستعمالاتها على المدى الطويل حاضرةً في ذهننا. فإذا كان صحيحاً أنّ بعض حالات اللامساواة غير مبرّرة في حد ذاتها، فإنّه ليس أقلّ صحّة أنّ وجود الثروات الفائضة عن الضروريّ يمكن أن يشكّل حافزاً قوياً إذا ما استعمل ذلك لخلق ثروات جديدة. فإذا نظرنا إلى هذا الأمر من هذه الزاوية يتّضح لنا أنّ المشكلة ليست في حجم الثروات بقدر ما هي في كميّة استعمالها.
- في هذا التفكير المعقّد، وحدها جرعة مناسبة من التواضع يمكنها أن تساعدنا على تجنّب التفسير المعكوس!

ثالثاً: لكلّ شخص فائض وضروريّ

" فأَجَالَ يَسُوعُ طَرْفَهُ وَقَالَ لِتَلَامِيذِهِ: « مَا أَعَسَرَ دُخُولَ مَلَكُوتِ اللَّهِ عَلَى ذَوِي الْمَالِ ». فَدَهَشَ تَلَامِيذُهُ لِكَلَامِهِ فَأَعَادَ يَسُوعُ لَهُمُ الْكَلَامَ قَالَ: « يَا بَنِيَّ، مَا أَعَسَرَ دُخُولَ مَلَكُوتِ اللَّهِ ! لِأَنَّ يَمْرُ الْجَمَلِ مِنَ نَقَبِ الْإِبْرَةِ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ الْغَنِيُّ مَلَكُوتَ اللَّهِ ». فَاسْتَدَّ دَهْشُهُمْ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: « فَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَخْلُصَ؟ » فَحَدِّقْ إِلَيْهِمْ يَسُوعُ وَقَالَ: « هَذَا شَيْءٌ يُعَجِّزُ النَّاسَ وَلَا يُعْجِزُ اللَّهَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ». (مرقس ١٠، ٢٣-٢٧)

لقد صور الأب فاريون على طريقته هذه الدعوة الموجهة إلى كلّ واحد كما يلي:

"لنأخذ على سبيل المثال شخصين لهما تقريباً الوضع نفسه: حالة ماديّة جيّدة، عدد الأولاد نفسه، وبالتالي النفقات نفسها لجهة المعيشة والأقساط المدرسيّة والمصاريف المختلفة ... أحدهما يقول

لي: "تعرف، أيها الأب، أنّ حالتني تسمح لي ... فإن كان لديك بعض المشاريع أو الحاجات يمكنني أن أضع بتصرفك، دون أيّ صعوبة، مبلغ ثلاثين ألف دولاراً."

ويقول لي الآخر: " تعرف، أيها الأب، أنّ الحياة ليست سهلة في هذه الأيام، فكلّ شيء مكلف..."

الشخصان لهما الأوضاع نفسها. لكنّ واحداً منهما فقط يفتح أذنيه وقلبه لصوت الروح القدس. أما الآخر فلا...

الفقر هو البحبوحة النزيهة. المفهوم مطّاط جداً. فماذا نُدخل في مفهوم البحبوحة النزيهة؟ التسلّيات، فهي أيضاً جزء من الحياة؟ التسلية أو الترويح عن النفس هما من ضرورات الحياة. وكلّ ما هو من باب الثقافة، والمطالعة، والموسيقى، والسفر... كلّ ذلك يكلف كثيراً.

"الفقر هو مبدأ كلّ خفة وحبور، كما يقول برودون (Proudhon)، وبتعبير آخر: الفقر هو وسيلة للتخلّص من القيم المزيّفة. إنّ الخطر الكبير في الغنى يكمن في أننا ننتهي إلى الركوع أمام قيم ليست قيماً حقيقية".

إنّ الركوع أمام قيم ليست قيماً حقيقية هو بلا شك علامة أكيدة على عجزنا عن الاختيار بين الضروريّ والفائض. فننجرّ وراء الأمور العابرة والسطحية، وراء المظاهر.

هذه المسألة تعيد الإنسان المسيحيّ، في الحقيقة، إلى الدينونة الأخيرة، إلى ذلك اليوم الذي فيه يتعيّن على كلّ واحد منّا أن يؤدّي الحساب عن أعماله وتصرفاته. فالخيارات التي نقوم بها أو لا نقوم بها في هذه الدنيا ستظهر يومئذ في نور الأبدية.

إنّ وعي الإنسان الحقيقيّ لوضعه الخاص، لدعوته الخاصة، لعلاقته الخاصة بخيرات هذا العالم، وحده هذا الوعي يمكن أن يساعدنا على أن نحدّد موقفنا تحديداً ضميرياً تجاه الضروريّ والفائض اللازمين لإنماء حياتنا وازدهار العالم.

يمكن لإنجيل مريم ومرتا أن ينيّرنا حول هذه النقطة، لأنّ ما رأته مرتا ضرورياً لم يكن كذلك في نظر مريم، والعكس بالعكس. ومع ذلك، فكلّ واحدة منهما أجابت على طريقتها عن انتظارات المسيح: "... اختارت النصيب الصالح الذي لن ينزع منها".

كذلك الأمر بالنسبة إلى مثل عمّال الساعة الأولى والثالثة... والحادية عشرة، هذا المثل الذي يصعب فهمه، خصوصاً بسبب مفهومنا عن العدالة. ولكن، ألم يكن المسيح يريد إعادتنا إلى الوقوف أمام ذواتنا، كما في مثل الوزنات: ما فائدة التساؤل عن مفهوم العدالة هذا، في حين أنّ كلّ واحد قد نال ما وُعد به؟

كذلك حال الأخ الأكبر في مثل الابن الشاطر: أما كان يستحقّ معاملةً أفضل وهو الذي حافظ على علاقته بأبيه، وبقي على أمانته تجاهه؟

جميع هذه التعاليم التي غالباً ما تصدم منطقنا العاديّ، أوليست ترمي إلى فتح أعيننا على حقيقة أنّ لدى الله تجاه كلّ واحد منا نظرة خاصة قوامها بالتأكيد الاهتمام والعناية ولكن أيضاً الانتظارات الخاصة بكل واحد؟ إنّ النظر إلى صحنِ جارنا يجب أن لا يثير اهتمامنا إلا إذا كان من شأنه أن يحرك فينا مشاعر المحبة، ولكنّه غير مسموح في حال من الأحوال أن يكون بهدف أي نوع من المقارنة أو الغيرة والحسد أو الشعور الفريسيّ بالرضى والاكتماء.

كلّ ذلك يجب أن يقوينا ويثبتنا في فكرة التأمل في دعوتنا وتحليل ما تستتبعه هذه الدعوة. ماذا يمكننا أن نعطي؟

- الوقت: بالنسبة إلى الكاهن، حياته كلّها. بالنسبة إلى العلمانيّ، قد يكون التزامه بتخصيص وقت يكرسه للآخرين (الأولاد، الأهل، الرعيّة، المحتاجين...). للجميع، إنّهُ الوقت الذي نخصّسه للصلاة وممارسة الإيمان...
- الانتباه: الإصغاء والانتباه والاهتمام.
- المال: المحبة المسيحية توصي بذلك. "كنت جائعاً...، كنت عطشاً... كنت مريضاً..." الواجب الأول يمرّ بعدم التهرّب من الضريبة، ولكن، لا نحرمن أنفسنا من العطاءات الاختيارية: " فإله يعوّضكم ما تعطونه أضعاف الأضعاف".

عندما زار البابا يوحنا بولس الثاني فرنسا حصّ المؤمنين على أن لا يخافوا. فلا نكون كثيري الحذر في تفكيرنا حول الفائض والضروريّ: إنّ الاندفاع والمجازفة هما بالتأكيد من علامات الفقر.

أسئلة:

١. لنفكر في الحدود بين الضروريّ والفائض في حياتنا كمسيحيين: هل نحن متأكّدون من معرفة هذه الحدود؟
٢. هل نأخذ الوقت لأن نختار ضميرياً ما هو ضروريّ لنا؟ إذا كان الجواب نعم، فماذا حصل في حياتنا؟ وماذا قرّرنا أن نعمل؟
٣. قاعدة حياة: لنأخذ نوعاً أو نموذجاً من الفائض في حياتنا، ولنحاول التخلّص منه.

الفصل السابع

روح الفقر الإنجيلي وتقدّم العالم

"إذا كنتُ أتكلّم باسم الله وباسم الفقراء فلا يمكنني أن أكون ضدّ التقدّم. فعندما أرى كلّ ما اخترعه الروح البشريّ حتى الآن لتحرير الإنسان من البرد والجوع والتعب والمرض والألم والجهل والوحدة...، أقول: يجب المتابعة. لأنّه لا يزال هناك الكثير من الجوع والألم والمرض والجهل والوحدة. ولا يزال الكثير أمام الإنسان، المشارك في الخلق، لكي يكمل الخليقة تنفيذًا لأمر الله. يجب عليه بعد ودائمًا أن يحلم ويعمل لكي يستخرج من الخليقة جميع ما فيها من ثروات لا تزال تنتظر الإنسان لكي يجعلها في خدمة الحياة ولكي يضعها في موضعها الصحيح في قدّاس الخليقة العظيم: التقدمة، التكريس، المناولة... لا يا أصدقائي، لا نتراجعنّ أبدًا أمام تحديات التقدّم. لا نتصورنّ البتّة أنّ الأرض كانت أجمل وأعدل وأكثر سلمًا أو حرّية قبل اختراع الليزر أو الكهرباء أو البخار أو الطباعة أو العجلة (الدولاب) أو النار. لنُبقِ حاضرًا في ذهننا أنّه ما من حلول إنسانيّة حقًا للمشاكل البشريّة إلّا على طريق التقدّم... ولكن، التقدّم من أجل ماذا؟ من أجل أيّ نموّ؟ لأنّه ليس هناك من تقدّم إنسانيّ حقّ دون تقدّم الضمير الأخلاقيّ."

دوم هلدن كامارا

"وأنت، ماذا تفعل في حياتك الشخصية وحياتك المدنيّة من أجل الذين يتألّمون؟"

الأب بيار

كيف نؤمن الغذاء كلّ عام لخمسين أو ستّين مليون إنسانٍ إضافي؟

قد يبدو السؤال مفاجئًا؟ ومع ذلك، فهو يختصر بشكل لا بأس به التحدّي الذي نواجهه لتحسين حالة العالم وتنميط المهمة التي أوكّلها الخالق إلينا.

في الحقيقة، كيف نتصوّر لنا مخرجًا إن لم نكن نعرف كيف نستوعب بكرامة كلّ عام هؤلاء الوافدين الجدد؟

ولكن كيف نؤمن أيضًا أنّ التقدّم، هذه "الفكرة الجديدة" التي راجت في القرن الماضي، أو الإنماء، هذا المفهوم الأوسع للفكرة عينها، وكلاهما أديا إلى خيبة كبيرة، كيف يمكنهما أن يؤدّيا لنا بعدُ أيّة خدمة؟

كيف نتصوّر إنماء العالم في بداية الألف الثالث؟

لقد قيل الكثير في ما سبق حول روح الفقر الإنجيلي ومستلزماته:

- واجب العدالة والمحبة
- الدعوة إلى تثمير الوزنات

▪ التمييز في استعمال خيرات هذا العالم

ولكن، يبقى في نهاية هذا التفكير سؤالاً مركزيّ: كيف نستفيد من هذه الرسالة وكيف يمكنها أن تشكّل مفتاح دخولٍ مميّزٍ لفهم العالم وتحويله؟

من أجل محاولة الجواب عن هذا السؤال، علينا أولاً محاولة توضيح نقطتين:

(١) ما هو هذا العالم الذي نتحدّث عنه؟

إذا أردنا أن نستعرض بسرعة ميزاته لقلنا إنّه:

- عالمٌ دَخَلَ في تحوُّلٍ متسارع تحت تأثير العولمة في التبادلات والتجديدات التكنولوجية؛
- عالمٌ يواجه لاتوازنات مختلفة: ديموغرافية وثقافية واقتصادية واجتماعية وسياسية؛
- عالمٌ يزداد ارتباطاً ببعضه ببعض ويزداد شموليةً و"عولمة"؛
- عالمٌ في سعيٍّ دائمٍ بحثاً عن المعنى والغاية؛
- عالمٌ قادر على صنع الأفضل والأسوأ.

"مات الله"، ربّما، لكنّ الإنسان لم يجد بديلاً عنه، وهو لا يزال يركض وراء السعادة والازدهار.

هذا هو العالم الذي تدرج فيه رسالة الفقر الإنجيلية وتتوجّه إليه: عالم ممزّق، سريع العطب، إنّما غنيّ بالإمكانات.

(٢) كيف تكون رسالة الفقر الإنجيلية رسالةً آنيةً؟

قد ينحصر الجواب في كلماتٍ قليلة: إنّ رسالة الفقر الإنجيلية تُحمَل كلٌّ واحدٍ منّا المسؤولية وتجعل منه شريكاً كاملاً في تطوير العالم.

أهمّ ما في هذه الرسالة أنّها تتوجّه إلى الجميع بدون تمييز: الأغنياء والفقراء، الأصحاء والمرضى، الرجال والنساء، الكبار والصغار... فجميعنا مدعوون إلى الالتزام في هذه المسيرة، والعالم سيكون ما سيصنع منه كلٌّ واحدٍ منّا.

إنّ التجذّر في أعماق ما في الكيان الإنسانيّ والإيمان بالفرد هما ما يعطيان هذه الرسالة قوتها الدائمة التي سمحت لها بتخطّي الزمن والتي تُضفي عليها اليوم عصرنتها الاستثنائية وذلك بالنسبة إلى من يريد أن يفهمها وأن يتشرّب منها.

إنّ الإيمان المسيحيّ، الذي يندرج في إطار رؤية فرحٍ لا تعاسة، يحمل السعادة، ويمكن أن يساعدا على التوفيق بين الكمّيّ، أي الخلق والتمثير، والروحيّ، وهو يدعونا إلى التواضع والسّخاء.

أولاً: مدى روح الفقر الإنجيلي

أ) أخلاقيّة التزام

١. مدعوون إلى أن نشهد حيث نحن
٢. ما من مواضيع محجوزة أو مغلقة
٣. الغنى الجماعي في هذا الالتزام يأتي من التنوع
٤. حبر الزاوية فيه هو إنكار الذات وروح الخدمة

ب) أخلاقيّة مسؤوليّة

١. عن محيطنا: فلنعمل على أن نفهمه وأن نحبه كما هو
٢. عن أنفسنا: فلنعمل ونتصرّف كأشخاص مسؤولين

ثانياً: روح الفقر الإنجيلي في خدمة تنمية العالم

أ) التوجّه إلى أفضل ما في كل واحد منّا

١. تأكيد سموّ المبادرة الفردية
٢. التشجيع على التعبير عن جميع المواهب
 - أ. التنشئة والتربية
 - ب. دعم استحداث نشاطات ومشاريع جديدة
 - ج. التكيف مع التطور
٣. تنشئة متقدّمة على الحرية

ب) الحُصّ على خلق ثروات

١. مهمّة كل إنسان هي استثمار الأرض
 - أ. ملاحظة أولى: يبقى العمل قيمة مركزيّة
 - ب. ملاحظة ثانية: الإثراء هو معيار قياس
٢. الإنسان مدعو إلى السيطرة على التطور
 - أ. الديموغرافيا
 - ب. الأرض
٣. تقاسم الثروات المستحدثة واجب فرديّ وجماعيّ

أولاً: مدى روح الفقر الإنجيلي

ليست رسالة الفقر الإنجيلي إعلان نوايا أو علامة جودة تجارية نحصل عليها بمجرد التطبيق الدقيق لقواعد محدّدة سلفاً. وهي ليست كذلك قانون سيرٍ روحيّ مع علامات جيّدة وعلامات سيّئة وعقوبات منصوص عنها ومع رجال شرطة أو درك يطبقونها.

إنها أخلاقية حياة تُفرض علينا في حياتنا الشخصية والجماعية لمساعدتنا على الإجابة عن دعوتنا كبشر. إنها هنا لكي تقودنا في حركاتنا وتصرفاتنا الحياتية اليومية وفي نظرتنا إلى العالم. الرسالة الإنجيلية هي أخلاقية التزام ومسؤولية.

آ (أخلاقية التزام

الرسالة الإنجيلية واضحة: نحن مدعوون إلى الالتزام بالعالم من أجل تطويره وتغييره.

اللامبالاة والـ"ما نفع ذلك" ليسا جائزين. وكذلك القبول بالتطور دون تفكير. إذ يترتب علينا أن نشارك في ما يجري مشاركة تامة. فرسالة المسيحي لا تقوم على أن يكون مجرد مشاهد بل على أن يكون ملتزمًا.

وكل واحد منا معني بهذه الدعوة:

١. نحن مدعوون إلى أن نشهد حيث نحن

ما من مكان مميز أو من مركز أو موقع أفضل من غيره. فنحن مدعوون إلى أن نشهد حيث نحن.

"إذا وجب أن تكون خبازًا فكن خبازًا مئة في المئة، وهذه طريقتك في أن تشكر الله". إن إنجيل مريم ومرتا يعطي صورة عن دعوة كل واحد منا حيثما كان وأيًا كان وضعه في المجتمع، على حد قول الأم تيريزا.

٢. ما من مواضيع محجوزة أو مغلقة

كم مرة سمعنا ملاحظات تدلّ على العجز أو اليأس لجهة عدم قدرتنا على أن نفعل شيئًا: "لا أستطيع شيئًا، ماذا تريدني أن أفعل...؟"

من الواضح أننا في حالات عديدة لا نستطيع أن نؤثر في مجرى الأحداث: النزاعات، الأزمات، التوترات... ولكن في كثرة التعاطي مع هذا العجز خطرًا كبيرًا في أن يشعر المرء بأنه غير معني وأن يصبح بالتالي لامباليًا. "ما عليهم إلا...". مثل هذا الموقف لا يتلاءم مع المتطلبات المسيحية.

▪ بوسعنا أحيانًا أن نؤثر، أكثر مما نظن، في وضع معين، بتصرفنا، بكلمة منا، بحركة

معينة تجاه قريب أو زميل أو شخص تربطنا به علاقة ما.

▪ هناك حالات يتغذى فيها ضميرنا الجماعي بردات فعل فردية قوية (موقف تجاه أحد

المواضيع المجتمعية، تدبير تشريعي أو تنظيمي، حدث إعلامي). والأمثلة عديدة على

وجود حركات جماعية واسعة الانتشار استطاعت نتيجة ما أشرنا إليه تعديل توجهاتها

الأصلية.

▪ تبقى الصلاة في جميع الأحوال وسيلة للعمل حيث يمكننا طلب شفاعة الرب.

٣. الغنى الجماعي في هذا الالتزام يأتي من التنوع

ليس هناك دعوات نبيلة وأخرى أقل نبلاً، ولا حركات مهمة وأخرى أقل أهمية، ولا أشخاص لهم حساب وآخرون لا وجود لهم. هناك فسيفساء من الأفراد، المختلفين الواحد عن الآخر، لكل منهم مواهبه وإمكاناته، بحسب قصد الله في شأننا. هذه الفسيفساء ليست صدفةً ولا شرّاً، إنها فرصة وحظّ. ولكن، يجب ألاّ تتقص منها قطعة واحدة وإلاّ كانت النتيجة عملاً ناقصاً. لكل واحد أن يعرف كيف يفكر في دعوته وكيف يتبناها ضميرياً. إنّ الوزنات لا قيمة لها إذا لم تُستثمر وبقية مدفونة. وذلك يفترض:

- الاعتراف بتفوق الفرد على أي شكل آخر من أشكال التنظيم البشري؛
- القدرة على التمييز لكي يتعلم المرء معرفة ذاته بتواضع كليّ وتحديد أولوياته؛
- احترام الآخر، الذي له مثل أي إنسان آخر دعوة خاصة، من أجل مساعدته على التعبير عن هذه الدعوة وتطويرها؛
- القبول بالاختلاف وعدم المساواة بين الحالات نتيجة الاختلافات في العمل والجهد والمواهب والثقافة...

٤. حجر الزاوية في هذا الالتزام هو إنكار الذات وروح الخدمة

لنستمع إلى ما يقوله القديس إغناطيوس دي لويولا:
 "أيها الرب يسوع، علمنا أن نكون أسخياء، أن نخدمك كما تستحق، أن نُعطي بلا حساب، أن نُصارع دون أن نخشى الجراح، أن نعمل دون أن نسعى إلى الراحة، أن نضحّي دون أن ننتظر مكافأة أخرى غير أن نعلم أننا نُتمم إرادتك القدوسة".
 ليس الهدف الوصول بالضرورة إلى نتيجة فورية ملموسة، بل الانخراط في عمل الرب الخلاصي.

يبدأ قانون الإيمان بكلمة "أؤمن" وينتهي بكلمة "أترجى". وليس المقصود بحال من الأحوال انتظاراً قديراً بلا أمل، بل قناعة ويقين بأن الجهود المبذولة ستجد مكافئتها يوماً ما في الأورشليم السماوية.

ب) أخلاقيّة مسؤوليّة

"إياكم والأنبياء الكذابين، فإنهم يأتونكم في لباس الخراف، وهم في باطنهم ذئاب خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم" (متى ٧، ١٥).

الأنبياء الكذابون الذين يقصدهم يسوع هم الفريسيون الذين يُغرون الشعب بمظاهر التقوى التي تُخفي آراء ومواقف لا تخلو من المصلحة. بالنسبة إلينا نحن مسيحيي اليوم، التحذير واضح جداً:

ليس المقصود أن نريح ضميرنا ببعض المواقف المبدئية أو بمحبة مُطمئنة، بل أن نرى كيف يمكننا بشكل ملموس تغيير الأشياء .
وذلك يفرض علينا نظرة مزدوجة:

١. إلى محيطنا: فلنعمل على أن نفهمه ونحبه كما هو

لدينا بالتأكيد أسباب كافية للتفكير بأنه إذا كان العالم كله على صورتنا فستسير الأمور بشكل أفضل. لكن، بالإضافة إلى أن الأمر غير مضمون، فإنّ الواقع غير ذلك. إنّ محيطنا ثروة، فيجب علينا استثماره بدل الاستمرار في الشكوى والتذمر، ولا نتخذ من ذلك حجة أو عذراً للبقاء بلا حركة، حتى ولو كان سبباً لكثير من الضغوط والمتطلبات.
فلنسح إذاً إلى رؤية العالم كما هو والآخرين كما هم، بروية ومحبة، لا كما نريد أن يكونوا. فذلك كفيل بأن يجنبنا الكثير من المفاجآت أو الخيبات.

٢. إلى أنفسنا: فلنعمل ونصرف كأشخاص مسؤولين

الفرص دائماً متوفرة في حياتنا اليومية حيث علينا الاختيار: بين الضروري والفائض، بين استعمال خيراتنا أو التصدق بها، ...
إنّ تصرف المرء كشخص مسؤول يستلزم منه الإصغاء والتفكير والقرار. ومجال التفكير يجب أن يكون أوسع ما يمكن (يقتضي وضع الأمور في المنظور الصحيح حتى ولو أدى ذلك إلى عدم التفهم من قبل الآخرين). إنّ الاستسلام للحلول السهلة لا يؤدي عموماً إلا إلى طريق مسدود.
المهم أن نقرر بضمير، وأن نشرح وجهة نظرنا، ومتى أخذنا القرار، أن نتحمّله ونتبنّاه بمسؤولية.

ثانياً: روح الفقر الإنجيلي في خدمة تنمية العالم

يمكن تعريف التنمية بأنها "تحسين الاقتصاد وكيفية سيره تحسناً نوعياً دائماً". وهي تقاس عموماً بمعطيات إحصائية محدّدة (الناتج المحلي، الدخل القومي ...) التي وإن كانت غير شاملة فإنّها تسمح، على الأقل، بإجراء مقارنات في الزمان والمكان.
لم ينجح الإحصائيون حتى الآن، بالرغم من مساعيهم، في أن يقيسوا "السعادة القومية القائمة"! فهل يستطيع روح الفقر الإنجيلي مساعدتنا على ذلك، كونه يتغذى من العالم المادي ومن العالم الروحي أيضاً؟ إنه يبدو، في كلّ حال، سلاحاً لا مثيل له في خدمة التنمية لأنه يرتكز على عمودين ثابتين وخالدين:

- فهو يتوجّه إلى أفضل ما في كلّ واحدٍ منّا؛
- وهو يحضننا على "الإيمان والإكثار"

آ (التوجّه إلى أفضل ما في كلّ واحدٍ منّا

"كلّ ما تفعلونه لأحدٍ إخوتي هؤلاء الصغار فلي تفعلونه"

للصغار أهميّةٌ ليس في مجال المحبّة فقط. فالرسالة الإنجيليّة لا تُختصر في نوع من الشعور العاطفيّ أو التعاطف الاجتماعيّ. قوتها في مكانٍ آخر، في ضرورةٍ روحيّةٍ مكوّنّةٍ للقانون الطبيعيّ: كلّ إنسان مخلوق على صورة الله، وهو فريدٌ ومدعوٌّ بهذه الصفة إلى أن يلعب دوره في تاريخ العالم.

إنّ سيادة الفرد على كلّ أمرٍ آخر تودّي إلى نتائج متعدّدة:

١. تأكيدُ سموّ المبادرة الفرديّة

إنّ الحرّيّة الاقتصاديّة هي امتداد للحرّيّة بالمعنى الواسع، تمامًا كالحرّيّات الأخرى (حرّيّة التفكير، حرّيّة الذهاب والإياب...). فهي تسهم كسائر أنواع الحرّيّة في إنماء الإنسان. ما من بنية أو مؤسّسة بشريّة، مهما كانت شرعيّتها، كالدولة والمنظّمات الوطنيّة أو الدوليّة وسواها، تستطيع أن تجهل هذه الحقيقة الأولى وأن تلجم الطاقات الفرديّة. بل على العكس، فإنّ كلّاً منها يجب أن يُصمّم ويُنظّم من أجل أن يكون في خدمة إبراز المبادرات الفرديّة وإنجاحها.

٢. التشجيع على إبراز جميع المواهب

يجب عملُ كلّ شيء من أجل التشجيع على تفتح الثروات الفرديّة ومواهب كلّ إنسان. وهذا يستلزم خيارًا واضحًا، وإن لم يكن بالضرورة الأسهل، لمصلحة كلّ ما من شأنه الإسهام في إنماء الطاقات الخلاّقة على حساب الأعمال اللاإراديّة الميالة إلى التمسك بالأوضاع المكتسبة والمحافظة عليها.

في الواقع، يجب ألاّ ننخدع أو أن نغلط: إنّ في تعدّد المبادرات جانبًا مزعجًا إذ يتضمّن كسرًا للعادات المألوفة وانفتاحًا على آفاق جديدة. وهذا لا يُعجب الجميع. ومع ذلك، فالمسألة ليست ما إذا كان يجب علينا المثابرة (إنّ غنى الموارد الفرديّة ودروس التاريخ تلتقي في الجواب عن ذلك) بل المسألة هي ما إذا كنّا مسلّحين تسليحًا كافيًا لكي ننجح في هذا الخيار على المدى الطويل، وما إذا كنّا مستعدّين لتوسيع مجال نشاطنا.

لأنّ ذلك يعني الرّهان على الفرد، أينما كان ومن حيثما أتى، والرّهان على ما لديه من روح خلاّقة ومن قدرة على أن يساهم بوضع حجره لتشييد البناء. إنّ هذا الرّهان يستحقّ العناء.

أ. التنشئة والتربية

الحاجات واسعة ومتشعبة في كلّ مكان. يكفي التفكير في مسألة محو الأميّة لدى الشعوب الأشدّ فقرًا.

ب. دعم استحداث نشاطات ومشاريع جديدة

تُظهر الخبرة أنّ حيويّة اقتصادٍ ما تتوقّف بشكل واسع على كفاءته وقدرته على استحداث مشاريع ونشاطات جديدة وعلى حيويّة نسيج مؤسّساته الصغيرة والمتوسطة.

هل نحن مستعدّون لمنح الفرصة لأصحاب مثل هذه المؤسّسات والمشاريع ولتحمل الإخفاقات المحتملة التي لا سبيل إلى تجنبها في مثل هذه المبادرات؟

ج. التكيف مع التطور

إنّ تحديث ظروف الإنتاج مهما كانت أسبابه (تحديث تقني، عولمة، ...) هي الترجمة الأكثر آنيّة والأصعب لهذا التكيف، لأنّ لها غالباً نتائج مؤلمة على العمالة (الوظائف). ومع ذلك، فملاحظة الواقع واضحة: إنّ المؤسّسات القادرة على التكيف مع التغيّرات الحديثة وعلى تنظيم نفسها بشكل منافس، لها وحدها حظّ في تخطّي هذه التجربة. إنّ الصورة الأشدّ دلالة على ما نقول تتعلّق بمسألة نقل نشاط المؤسّسات إلى أماكن وبلدان أخرى، إذ إنّ بقاء المؤسّسة على قيد الحياة يمرّ أحياناً بهذا الطريق. ألا يمكننا النظر إلى هذا الموضوع أيضاً من جهة كونه فرصة وحظاً للبلدان المضيفة التي تشهد بروز نشاط اقتصادي جديد مع ما يحمله من تحسين محتمل لقوتها الشرائيّة المحليّة؟ أولاً يمكن اعتبار ذلك نوعاً من إعادة توزيع الثروات؟ ثمّ كيف نحدّد موقعنا بالنسبة إلى هذا التحديّ الناجم عن العصرية؟ وكيف نتهيأ له؟ وهل نحن قادرون على تحمّل نتائجه؟

٣. تنشئة متقدّمة على الحرّية

إنّ ممارسة الحرّية الحقيقيّة أمرٌ بالغ التطلّب. فكلّ عمل أو تصرّف يجب أن يوزن وفقاً للضمير مع الإدراك بأنّه سيؤدّي إلى نتائج قابلة للقياس، وبالتالي معرّضة للتعليقات والانتقادات. هذا الأمر ليس من المسلّمات. فقد يكون أسهل وأريح أن يحتمي المرء وراء عدم المسؤوليّة! الجميع يتصوّر أنّهم رابحون في هذه اللعبة: بعضهم يحتفظ بسلطته (قد يكون عليهم تبرير أنفسهم من حين إلى آخر)، وآخرون يستمرّون في تحمّل الوضع (وفي هذا الوقت، يفكّرون في شيء آخر ويوزعون الانتقادات).

إنَّ الحقيقة هي شيء آخر: الرجل الذي تربى على المسؤولية هو الأقوى روحياً واقتصادياً. فلا يمكننا أن نأمل بأن ننبي عالمًا على الذين يعرفون ونُهمل الآخرين. ما من مؤسسة بشرية نجحت في ذلك.

إنَّ مقارنةً من هذا النوع تفترض توفّر الطاقة لدى الإنسان في كلّ لحظة لأنها تحت كلّ واحد على أن يتجاوز قدرته من أجل أن يخلق ويبنى ويُطوّر. إنه لأمرٍ متطلّب بشكل مضاعف: تجاه كل واحد فرديًا (فتطوير المواهب أمر واجب) وجماعياً (إذ يجب الاعتراف بأنّ لكلّ واحد مكانه). وهو يتعلّق بعقلية معيّنة أكثر منها بلائحة تدابير، لأنها تتوجّه إلى أعمق ما في كياننا وتراهن على قدرة كلّ واحد على تحقيق ذاته من خلال تحقيق أعماله.

(ب) الحصّ على خلق ثروات

لقد أظهر تحليلُ الرسالة الإنجيليّة صحّة ذلك: فمهمّة الإنسان على الأرض هي مواصلة عمل الربّ.

إنَّ التأكيد على الطابع الأولويّ لخلق الثروات يمكن أن يكون مفاجئاً في عالمٍ مطبوع بالوفرة والنقص معاً. أوليس من الأبسط إعادة توزيع الثروات الموجودة بشكلٍ أفضل قبل التفكير بخلق ثروات جديدة؟

يمكن الملاحظة أولاً أنّ الحاجات هي من الحجم بحيث لا تكفيها إعادة توزيع الثروات الموجودة. ثم قد يعني ذلك نسيان أنّ الخيرات التي أوكّلها الخالق إلينا هي دينٌ علينا.

١. مهمّة كل إنسان هي استثمار الأرض

خلافًا لما قد يفكّر فيه بعض الناس، نحن لا نشهد "نهايةً للتاريخ" يمكن أن تحتنا على أن نستكين وأن نكتفي بإدارة ما هو موجود. إنّ هذه الرؤية من قبل الأغنياء أو المتشائمين لا تلائم لا وضع العالم ولا دعوة الإنسان. فعالمنا لا يزال مليئاً بالبؤس والشقاء وبالمصائب والآلام، ولا يجوز إبقاء الأوضاع كما هي. فليس هناك فائض من الثروات بل نقص كبير. وزيادة الثروات حاجةٌ تزداد إلحاحاً كلّ يوم. لذلك، من المهمّ أن ننظر نظرة صافية إلى أنفسنا وإلى العالم.

يمكننا، حول هذه النقطة، إبداء ملاحظتين:

أ. الملاحظة الأولى: يبقى العمل قيمة مركزية

إنّ مجتمعاتنا البشريّة هي كما هي، بحيث يبقى العمل الطريق المميّز لممارسة المواهب. وسواء تمّ الاعتراف به أم لا، (إنّ وضع عمل الأمهات في المنازل، أيّاً كانت ظروف ممارسته يبقى في الغالب أمراً منسياً بصورة ظالمة)، ومهما كانت ظروف ممارسته (عمل مأجور، مهن حرّة، عمل تطوّعي) أو تطوّره (وقت جزئي،

وقت متقاسم، عمل عن بعد)، فإنّ العمل، بصفته ممارسة نشاط، يبقى معيار التعبير عن المواهب، وقيّمته لا بديل لها. إنّ فكرة مجتمع يقوم على أشخاص يُعطون من عملهم وآخرين يأخذون دون أن يعملوا، هي فكرة غير مقبولة، إن لم تكن غير قابلة للتصوّر. مثل تلك الرؤية، غير المجدية اقتصادياً، قد تكون مخزية ومُهينة للكرامة الإنسانية بالإضافة إلى كونها مصدر توترات لا تُحتمل.

هناك عدّة أسئلة أساسية يمكن طرحها وهي تتعلّق:

١- بظروف ممارسة العمل: فطالما أنه يتوافق مع الكرامة الإنسانية (رفض الاستعباد، عمل الأولاد،...) ومع القوانين المرعية الإجراء، فهو يتعلق بحرية اختيار كل واحد؛

٢- بالأجر، الذي يجب أن يكون عادلاً بالتأكيد. ولكن، ليكن حاضرًا في ذهننا ما يلي:

▪ ما من علم دقيق في هذا المجال. إذ لا يمكن تقدير الأجر إلا بالنسبة إلى الشخص المعني وإلى الوضع، وذلك دون إغفال أمر الاستثناس بسوق العمل. وفي حالة مساهمة العمل المبذول في نجاح المشروع أو المؤسسة بشكل قابل للقياس، فإن صيغ المكافآت الفرديّة أو الجماعيّة قد تبدو ملائمة تمامًا.

▪ إنّ دخل الفرد الفعليّ، أي ما يصل إلى جيبه من أساس الأجر، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمستقطعات المالية والاجتماعيّة القائمة. وهذا الدخل هو بنفسه مؤلّد لتدفّقاتٍ ماليّة تصبّ مجدداً في الاقتصاد (الاستهلاك، الادخار)، ويرتبط حجم هذه التدفّقات، المعروفة لدى الاقتصاديين تحت تسمية "العامل المضاعف"، بمقدار هذا المبلغ. وبذلك تكون مسؤوليّة الجماعة في سياسة الاستقطاع التي تقرّرها أثقل. وعليها بالتالي ألاّ تعتبر الموضوع مجرد مسألة أوعية متّصلة، لأنّ في ذلك إغفالاً للقواعد الاقتصاديّة الأوليّة ولتأثير التصرفات الفرديّة، كما عليها أن تحدّد هذه الاستقطاعات بشكل يؤمّن إعطاء الأولويّة لتحرير الطاقات الفرديّة. كلُّ شيء، بالفعل، يدلّ على أنّ مستوى استقطاعٍ ثقيلٍ يشكّل عبئاً كبيراً بلا جدوى على "العامل المضاعف" ويُضعف بالتالي روح الخلق للثروات.

▪ إنّ الأجر هو الترجمة النقدية لعمل معين. وما دام كلّ عمل لا يؤدي إلى إغناء العالم بنفس القيمة فمن الطبيعي أن يكون هناك اختلافاً في الأجور. فإنكار ذلك هو نوع من السذاجة، وفرض المساواة في الأجر خوفاً من زيادة

الفوارق (إلا في الحالات الخاصة الملحوظة قانوناً بالنسبة إلى موضوع الحد الأدنى للأجور) هو من قبيل الخفة. إنَّ الأفضل بلا شك هو العمل على توعية المستفيدين من الأجور المرتفعة على مسؤوليتهم المعنوية أو الأخلاقية. إنَّ تطوير أنظمة يهتم بها الناس من النوع الضريبي أو ما شابه لحثهم على تقاسم ثروتهم هو أفضل وأكثر فاعلية. تبقى حالة خاصة: حالة عامل الساعة الحادية عشرة. من هو؟ هل نحن مستعدون لقبوله؟ وكيف نتعامل معه؟

٣- بالذين لا عمل لهم: من الواضح أنَّ المجتمع لا يمكنه التخلّي عنهم. ولكن، يفرض المنطق المتوافق أيضاً مع مفهوم الكرامة البشرية والفاعلية الاقتصادية أن نحثّ الذين هم بلا عمل ويحصلون على مساعدة من الجماعة، على السعي الجاد لإيجاد مكانٍ لهم في سوق العمل، حتى ولو أدّى ذلك إلى القبول بنشاط لا يتناسب مع طموحاتهم أو مؤهلاتهم.

ب. الملاحظة الثانية: الإثراء هو معيار للقياس

يطرح خلق الثروات منطقياً مسألة إثراء من قام به، أكان ذلك بشكل موجودات إضافية، أم أموال، أم سلطة أم أي شكل ملموس آخر. المسألة أساسية شرط أن تُطرح طرْحاً جيداً.

فبمجرد وضع أنفسنا في منظور التفتح الفردي وفي أفقٍ طويل الأمد، لا تعود المسألة مسألة معرفة ما إذا كان الإثراء مبرراً أم لا مقارنةً مع معايير موضوعية مسبقاً- وكيف نحددها؟- أكثر من أن نرى بدقّة ووضوح مردودَ هذا الإثراء وما يوفّره.

الكنيسة، في كلّ حال، لا تدين الإثراء المادي، بل تُخضعه فقط إلى مسألتين ضميريتين:

- كيف حصلنا عليه؟
- وكيف نستعمله؟

يمكننا أن نُضيف إلى هاتين المسألتين تفكيراً أوسع حول ماهية محرّك النشاط الاقتصادي، الذي يقوم، في جميع مراحل التطور، على تجميع رأس المال الضروري للنشاطات الجديدة. فالاقتصاد بحاجة إلى ادخار لتمويل النشاطات المستقبلية، وإلى مستهلكين للإنفاق، وإلى مستثمرين لإطلاق مشاريع.

الإثراء ليس إلا أجر هذه الدينامية، والمال ليس إلا معياراً للقياس ووسيلة. فإدائه أو إرادته تحديده بتسرعٍ هما بمثابة المجازفة دون جدوى بقتله في المهد دون مقابل.

٢. الإنسان مدعو إلى السيطرة على التطور

ليست مهمة الإنسان استثمار الأرض بأي ثمن. بل ينبغي أن يكون التقدم الذي يجب عليه السعي وراءه متناغماً مع ما حصل عليه ومحترماً له. إنَّ الفعالية الاقتصادية تتوافق مع هذه المقاربة العقلانية.

إنَّ تحكّم الإنسان تحكّماً جيّداً بالمحيط وبالبيئة يمرّ بألويتين:

أ. الديموغرافيا

هذه النقطة معقّدة، ولقد سبق بحثها مطوّلاً من الناحيتين المادية والروحية. ومع ذلك، فالتاريخ الحديث والتاريخ الأقدم أيضاً يبينان أنّ السيطرة على التطور الديموغرافيّ يظهر كعنصرٍ مفتاحٍ لعملية الإنماء، أكان ذلك من زاوية نموّه الكميّ أو من زاوية هجرات الشعوب داخل البلدان أو فيما بينها.

ب. الأرض

لقد أوكلت الأرض إلى الإنسان من قبل الله. وعلم الإنسان أن يعرف كيف يعتني بها وكيف يتعامل معها باحترام. وذلك يمرّ بإبراز قيمتها - "انموا وأكثروا" - ولكن ليس بأيّ شروط.

إنَّ الاهتمامات البيئية هي جزء من هذه السيطرة وهذا التحكّم. فالمحافظة على الطبيعة في أجمل ما فيها، والسماح لكلّ إنسان بأن يستفيد منها، وأن يتنشّق الهواء النقيّ، ويشرب المياه النظيفة، هي كلّها أولويّات تفرض نفسها.

٣. تقاسم الثروات المستحدثة واجبٌ فرديّ وجماعيّ

إنَّ المتطلّبات المسيحية - ليس الإنسان إلا مؤتمناً على إدارة خيرات العالم - ومتطلّبات الحياة الاقتصادية - تداول الموارد ووجود قوّة شرائية ضروريّان للاقتصاد القويّ - هذان الأمران يطرحان بذاتهما مسألة تخصيص الثروات المستحدثة واستعمالها.

إنَّ الواجب الأخلاقي يلتقي بالمصلحة الاقتصادية. وعندما يسألنا دوم هلدرك كامارا، الأسقف الآتي من بلد حيث الفقر ليس مجرد كلمة جوفاء، حين يسألنا: "التقدم من أجل ماذا؟"، فهو لا يقول شيئاً مختلفاً: إنَّ دعوة رجل الكنيسة تلتقي بدعوة الاقتصاديّ. والرهان كبير. وهو على

صعيد ماديّ، إذ إنّ الملايين من الأشخاص معنيّون بالأمر بشكل مباشر، وعلى صعيد روحيّ، لأنّه يتعلّق بقدرة الإنسان على العمل من أجل الخير المشترك.

أمّا مسألة الـ"كيف" فهي أكثر جدّة. فالطبيعة، في الواقع، ليست كاملة، ذلك لأنّ جميع البشر، مع أنّهم مولودون أحرارًا ومتساوين في الحقوق، ليسوا في الواقع كذلك. فمن الطبيعيّ إذاً أن تقوم بعض الآليّات التصحيحيّة كآليّات الماليّة (الضريبيّة) والإعانات وسواها، بعملية إعادة التوازن. وقد أوكل هذا الدور تقليدياً إلى الدولة أو إلى الأجهزة الدوليّة المتعدّدة الأطراف.

ومع أنّه لا أحد ينازعها هذا الدور جدّيّاً، إذ إنّ الجميع متوافقون على صعوبة إيجاد بديل لها، فإنّه لنا الحق بالتساؤل حول الغاية من تدخّلها ومجال هذا التدخّل: إلى أيّ حدّ يمكنها الوصول؟

إنّ طرح هذا السؤال يعني في الأساس التساؤل حول معنى التقدّم الاقتصاديّ وظروفه، وبوجه أكثر عموميّة حول معنى الإنماء وظروفه. والجواب يتعلّق بشكل واسع برؤيتنا للعالم وثرواته. فإن كان يُنظر إلى العالم على أنّه غير متحرّك، أي كقالب حلوى لا يزداد حجمه عندما يتوزّع، يصبح توزيع الثروات حجةً لصالح نظامٍ إكراهيّ يساوي بين الجميع مع الاعتراف بسلطة واسعة للدولة لكي تأخذ بيد وتدفع بيد. أمّا إذا نُظر إلى العالم على أنّه في حالة توسّع وانتشار بحيث يُعتبر كلّ فردٍ مساهماً في زيادة الثروات المتوفّرة، وإذا لم ينظر إليه على أنّه لعبة لا ربح فيه ولا خسارة - أي أنّ خلق الثروات لا يتمّ على حساب ثروة أخرى والربح في موضع لا يترجم بخسارة في موضع آخر - يكون الأفق أكثر انفتاحاً. فتُعطى الأولويّة إلى كلّ مبادرة تسهم في زيادة الثروات وفي إغناء مقابل. ويصبح النقاش حول التوزيع في هذه الحالة يتركز على طرق ووسائل زيادة الكميّة الواجب توزيعها أكثر منه على معرفة أين نأخذ الموجود لكي نعيد توزيعه. المقابل، طبعاً، هو في قبول وتبني الاختلافات بين حالات فرديّة.

وهكذا نرى أنّ مسألة توزيع الثروات هي في قلب التفكير حول رسالة الفقر الإنجيليّ.

من الواضح أنّ الأجوبة المتوفّرة حتى اليوم ليست كافية نظراً إلى حالة النموّ والتطوّر في العالم. وليس أكيداً كذلك أنّ النقاش قد طرح دائماً بشكلٍ صحيح. فبإعطاء الأولويّة للكلام على ما للجميع من وزنات وعلى وضعها بتصرّف العالم، يصبح بإمكان الرسالة الإنجيليّة أن تعيد وضع المسألة في إطارها الصحيح.

في نهاية هذا التفكير، عسى ألا نكون مثل ذلك الخادم الكسلان الذي لم يعرف أو لم يُرد استثمار الوزن الوحيدة التي سلّمه إياها سيّده، لأنّه ظنّ أن السيّد قاسي القلب فخاف منه. ليس الرّب قاسي القلب. بل هو متطلّب. وسيحاسبنا على ما أوكله إلينا. فعسى أن نكون ساعتئذ في وضع من يملك جوابًا.

"لا تخافوا!" هذه هي الصرخة التي أطلقها البابا يوحنا بولس الثاني. إذا، فلا نخاف من وضع ثقتنا وإيماننا الذي لا يتزعزع في مواهب الإنسان. ولنعرّف كيف نستفيد منها لإنماء العالم.

أسئلة:

١. كيف يندرج احترام الحرّية الاقتصادية الفرديّة في خطّ الرسالة الإنجيليّة؟ وإلى أيّ حدّ يمكن أن تصل تلك الحرّية؟
٢. ما معنى توزيع الثروات العادل؟ كيف يرتبط بإنماء المواهب الفرديّة الحرّة؟
٣. ما هي المبادرات التي نحن مستعدّون للقيام بها في حياتنا اليوميّة لكي نلتزم التزامًا أكبر بخلق الثروات وبتوزيعها توزيعًا أفضل؟